علاقَةُ المُسْلِمِ بأهلِ الكتاب في ميزانِ القرآن

إعداد الباحث

الدكتور

منصور محمود حسن أبو زينة

الأستاذ المشارك في قسم أصول الدين

تخصص التفسير وعلوم القرآن

كلية الشريعة / جامعة اليرموك

الأردن

مُلَخَّص البحث

يهدِفُ هذا البحثُ إلى استجلاءِ طبيعةِ علاقةِ المسلم بأهل الكتاب في ميزانِ القرآن الكريم، وتفصيلِ الأحوالِ المختلفةِ الناظمةِ لهذه العلاقة، وبيانِ الأدلَّةِ الشرعيَّة على تلكَ الأحوال، وردِّ الشُّبُهاتِ المعاصرة التي أثيرَتْ حولَها. وقد توصَّلَ هذا البحثُ إلى عدَّةِ نتائج، منها: أنَّ موقفَ المسلم من أهل الكتاب في ميزان القرآن ليس موقفًا واحدًا، وإنما هو موقفٌ ذو ثلاثِ شُعَب؛ هي: (الموقفُ العقديُّ)، و(الموقفُ التعايُشِيُّ)، و(الموقفُ الجِهاديُّ)، وهذه المواقفُ الثلاثةُ لا تعارُضَ بينَها ولا تناقُض. ومنها: أنَّ موقفَ المسلم العَقديَّ من أهل الكتاب قائمٌ على دعوتِهم إلى الإسلام، والإيمانِ بالنبيِّ الخاتَم (محمد صلى الله عليه وسلم)، وبالكتاب الخاتَم (القرآن الكريم). ومنها: أنَّ الموقِفَ التعايُشِيَّ من أهل الكتاب يُؤَكِّدُ أنَّ أصلَ العلاقةِ بينَ المسلمينَ وغيرهم السِّلْمُ لا الحربُ؛ لأنَّ أصلَ العلاقةِ بينَ بَنِي الإنسان هو التعارُفُ والتعاون. ومنها: أنَّ الموقفَ الجِهاديَّ من أهل الكتاب تنتَظِمُه محاورُ ثلاثة، وهي دعوتُهم إلى اتِّباع الإسلام، وحوارُهم وجدالُهم بالتي هي أحسَن، وقتالُهم إذا اعتَدَوْا على المسلمين أو صَدُّوا عن الإسلام.

الكلمات الدالة: موقف، القرآن، أهل الكتاب.

Abstract

The aim of the study was to identify the nature of the relationship between Muslims, Christians and Jews in the Holy Quran, to detail the different situations organizing this relationship, provide some Shari evidences about these situations, and to refute the accusations and arguments surrounding the nature of the relationship between Muslims, Christians and Jews. The study concluded with several results, including that the position of Muslims towards Christians and Jews in the Holy Quran is not the same, but takes three main forms: The Aqeeda situation, The coexistence situation and The Jihadi situation. These three situations do not include any paradox or contradiction. This is evident when knowing that the Aqeeda position clarified in the Holy Quran for Muslims towards Christians and Jews is very clear, and does not include any obscurity as the Holy Quran has declared that Christians and Jews are basically non- believers, that they did not believe in the Prophet Mohammad, the final prophet on Earth, nor did they believe in the Holy Quran, the last Holy Book sent to man and thus, their religion will not be accepted by them. The second position is coexistence, which includes the fact that the essence of the relationship between Muslims, Christians and Jews is peaceful in nature, not war as humans are to interact, to know each other and to collaborate. The Jihadi position of the Holy Quran is organized by three basic principles, the first is to call Christians and Jews to embrace Islam; the second is to discuss and argue them peacefully, while the third is to fight them if they attack Muslims or they did not embrace Islam.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا رسولِ الله، وعلى آلِه وصحبه ومَنْ والاه.
أما بعد؛ فقد أنزلَ اللهُ تعالى القرآنَ هاديًا للمسلمِ في شؤونِه كلِّها، ومُنَظِّمًا لعلاقاتِه كلِّها، علاقتِه بنفسِه، وعلاقتِه بربِّه، وعلاقتِه بالناس جميعًا، أقاربَ وغيرَ أقاربَ، ومسلمينَ وغيرَ مسلمين. وجَعَلَ الضابطَ في هذه العلاقاتِ جميعًا هو العدلَ والتوازن، بلا إفراطٍ ولا تفريط: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن/٧-٩).

ومن هذه العلاقاتِ التي جاءَ القرآنُ بتنظيمِها علاقةُ المسلمِ بـ(أهلِ الكتاب)، وهذا مصطلحٌ قرآنيٌّ يُقصَدُ به اليهودُ والنصارى بصفةٍ عامَّة، وقد يُرْشِدُ السياقُ القرآنيُّ في بعضِ المواضع إلى أنَّ المرادَ بـ(أهلِ الكتاب) خصوصُ النصارى، وفي مواضعَ أخرى خصوصُ اليهود؛ لكنَّ اللفظَ عند إطلاقِه يشملُ الفريقَيْنِ معًا.

وقد أولَى القرآنُ (أهلَ الكتاب) عنايةً لافِتَة، وجعلَ لهم خُصوصيَّةً في طريقةِ خطابهم، وفي بعضِ الأحكامِ التشريعيَّة، والذي يستقرئُ آياتِ القرآن يُدركُ أنَّه لم يَتْرُكْ جانبًا من جوانب علاقةِ المسلمِ بـ(أهلِ الكتاب) إلا وقد بَيَّنَه، ووضعَ له الأُطُرَ والقواعد، سواءٌ في ذلك الجانِبُ العَقَدِيُّ، والجانبُ التعايُشِيُّ، والجانِبُ الجهادِيُّ، كلُّ ذلك وَفْقَ منهجِ العدلِ والإنصافِ، الذي هو منهجُ دينِ الحق: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (الحديد/٢٥).

ويأتي هذا البحثُ ليدرُسَ طبيعةَ علاقةِ المسلمِ بأهلِ الكتاب، وفقَ ما تُقرِّرُه آيُ القرآن الكريم، وما تُفصِّلُه هذه الآياتُ من مواقفِ تلك العلاقةِ المتعَدِّدة، المبنيَّةِ على أُسُسٍ عَقَديَّةٍ وتعايُشِيَّةٍ وجهاديَّة، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى سيُناقِشُ هذا البحثُ بإذنِ اللهِ الشُّبُهاتِ التي تُثارُ حولَ علاقةِ المسلمِ بأهلِ الكتاب، وحولَ النواحي المختلفةِ لهذه العلاقة.

<u>أهميَّةُ البحث:</u>

تكمُنُ أهميَّةُ هذا البحثِ في أنَّ موضوعَ (علاقةِ المسلمِ بأهلِ الكتاب) قد تناولَه عددٌ من الباحثينَ في العصرِ الحديث، في جُمْلَةٍ من الدراسات؛ إلا أنَّ بعضَ هذه الدراسات، قد انطوَتْ على غَبَشٍ في تصوُّرِ هذه العلاقة، وخَلْطٍ في جوانِبِها المختلفة، وحالاتِها المتباينة، واضطرابٍ في الاستدلالِ بالآياتِ القرآنيَّةِ المتَّصلةِ بهذا الموضوع، مما أثمرَ نتائجَ غيرَ صحيحةٍ في طبيعةِ هذه العلاقة، وفي ضبطِ أحوالِها المختلفة.

وهذا الغَبَشُ والالتباسُ منشؤُه الخَلْطُ بينَ المواقفِ الثلاثة الناظمة لهذه العلاقة، أعني الموقفَ العَقَديَّ، والموقفَ التعايشيَّ، والموقفَ الجهاديَّ، والاستدلالُ بآياتِ (الموقفِ

التعايشي) مثلًا على (الموقفِ العقدي)، وبآياتِ (الموقفِ العقدي) مثلًا على (الموقفِ الجهادي). والحقيقةُ أنَّ الشرعَ الإسلاميَّ قرآنًا وسُنَّةً قد ضبطَ تلك العلاقةَ، وفصَّلَ هذه المواقفَ الثلاثة. ولا شكَّ أنَّ سُنَّةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم شرحٌ وبيانٌ لأحكامِ القرآنِ عمومًا، ولتفاصيلِ هذه العلاقةِ خصوصًا؛ وإذنْ فتفصيلُ هذه العلاقةِ في ميزانِ القرآنِ لا سبيلَ إليه إلا بالاستعانةِ بالسُّنَّةِ القوليَّةِ والفِعليَّة، التي فيها تَمَثُّلُ هذه العلاقة، وتنزيلُها على الواقع.

مشكلةُ الدراسة وأسئلتُها:

تتركَّزُ المشكلةُ الرئيسةُ لهذا البحث في محاولة استكشافِ طبيعةِ علاقة المسلم بأهلِ الكتاب، وفي استجلاءِ حالاتِها المختلفة، وفي معرفةِ الشُّبُهاتِ المُثارَةِ حولَ هذه الحالات، ثم رَدِّ تلكَ الشُّبهات.

وينبني على هذه المشكلة عدَّةُ أسئلة، وهي:

١- ما طبيعةُ علاقة المسلم بأهلِ الكتاب وَفْقَ ما يُقرِّرُه القرآنُ الكريم وتُبَيِّنُهُ السنَّةُ النبويَّة؟
٢- ما الأحوالُ المختلفةُ الناظمةُ لهذه العلاقة؟ وما الفروقُ بينَ (الموقفِ العقديِّ) و(الموقفِ التعايشيِّ) و(الموقفِ الجهاديِّ) من أهل الكتاب؟
٣- ما الأدلَّةُ الشرعيَّةُ من القرآن والسُّنَّة على تفصيلِ هذه المواقفِ الثلاثة؟
٤- ما الشُّبُهاتُ التي أثيرَتْ في العصر الحديث حولَ كُلِّ موقفٍ من تلكَ المواقفِ الثلاثة؟ وما الردُّ عليها؟

أهدافُ الدراسة:

تهدفُ هذه الدراسة إلى تحقيقِ الأهداف الآتية:

١- تقريرُ الحقائق المتَّصلة بعلاقةِ المسلم بأهلِ الكتاب، وَفْقَ ما جاءَ في القرآن الكريم، وبَيَّنَتْهُ السُّنَّةُ النبويَّةُ الشريفة.
٢- تفصيلُ الأحوالِ المختلفةِ الناظمةِ لعلاقةِ المسلم بأهلِ الكتاب، وبيانُ الأدلَّةِ الشرعيَّة على مواقفِ هذه العلاقة المتعدِّدة، وهي (الموقفُ العقديُّ)، و(الموقفُ التعايُشيُّ)، و(الموقفُ الجهاديُّ).
٣- رَدُّ الشُّبُهاتِ التي أُثيرَتْ في العصر الحديث حولَ كُلِّ موقفٍ من هذه المواقف الناظمة لعلاقةِ المسلم بأهلِ الكتاب.

الدراساتُ السابقة:

هناكَ عددٌ من الدراساتِ والأبحاثِ التي تناوَلَتْ جوانبَ من هذا الموضوع، ومن أوثقِها صلةً بموضوع هذا البحث ما يأتي:

١- بحثٌ بعنوان: (القرآنُ الكريمُ وموقفُه من أهل الكتاب)، للباحث أشرف عباس القاسمي، منشورٌ في مجلة (الداعي) الشهريَّة، دار العلوم (ديوبند) – ديسمبر ٢٠١٣م – العدد (١-٢) – السنة (٣٨).

وقد عرضَ الباحثُ لمعنى (أهلِ الكتاب)، وللأسبابِ التي من أجلِها خَصَّهُمُ القرآنُ بالذكر، ولطريقةِ القرآن في خطابهم، وللأحكامِ الشرعيَّةِ الخاصَّةِ بهم، ثم تطرَّقَ إلى الحوارِ مع (أهل الكتاب) المعاصرين، وفقَ هَدْيِ القرآن.

٢- بحثٌ بعنوان: (الآياتُ المادحة لأهل الكتاب – عرض وبيان)، للدكتور محمد خازر المجالي، منشورٌ في مجلة دراسات (الجامعة الأردنية) – المجلد (٣١) – العدد (١) – سنة ٢٠٠٤م.

وقد درسَ الباحثُ في هذا البحث مجموعةً من الآيات القرآنية، التي يدلُّ ظاهرُها على مَدْحِ لأهل الكتاب أو لفريقٍ منهم، وينتهي بعدَ دراسةِ هذه الآيات إلى أنَّها جاءَتْ أحيانًا مادحةً لمَنْ أسلَمَ منهم؛ إغراءً للآخرينَ بأنْ يتَّبعُوهُم، وأحيانًا مدحًا لهم في زمانِ أنبيائِهم، وأحيانًا مدحًا لبعض جوانب الشخصيَّة. وأنَّ هذا المَدْحَ في تلكَ الآيات لا يُمْكِنُ أنْ يكونَ مدحًا لهم على بقائِهم على دينِهم، أو أنْ يكونَ المدحُ مُسْتَمِرًّا لهم بعدَ مجيءِ النبيِّ صلى الله عليه سلم؛ لأنَّه بعدَ مجيئِه لا دينَ إلا الإسلام.

٣- رسالةُ ماجستير بعنوان: (خطابُ أهلِ الكتاب في القرآن الكريم)، للباحث أحمد لطف البريهي، جامعة عدن، سنة ٢٠٠٨م.

وقد كانَ تركيزُ هذه الرسالة –كما هو واضحٌ من مُلَخَّصِها_ على أسلوبِ القرآن في مخاطبَة (أهل الكتاب)، من حيثُ شَكْلُ الخطاب، ومن حيثُ مضمونُه. وبيَّنت الرسالة أنَّ خطابَ (أهلِ الكتاب) قد تَوَزَّعَ على سُوَرٍ قرآنيَّة عديدة، لكنَّه متكامِلُ الدلالة، تتكامِلُ نصوصُها مع بعضِها. وبيَّنَتْ كذلك أنَّ وسائلَ الخطابِ القرآنيِّ لأهلِ الكتاب قد تَعَدَّدَتْ بحسب المقامِ والحال، ما بينَ ترغيبٍ، وترهيبٍ، وحوارٍ، وجدالٍ بالتي هي أحسن، ودحضٍ للشُّبَهِ بالحُجَّةِ والمنطق.

٤- كتاب (علاقة المسلمين بغير المسلمين)، للدكتور سعيد إسماعيل صيني، مكتبة دار الفجر الإسلامية، المدينة المنورة، سنة النشر ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م

وبيَّنَ مؤلِّفُ هذا الكتاب أنَّ القاعدةَ العامَّة في معاملة غير المسلمينَ في الإسلام هي الرحمةُ والسلام، وأنَّ هذا السلامَ ليس معناهُ الاستسلامَ أو عدمَ مجابَهةِ العدوان، وردع الظالم. ثم بَيَّنَ أنَّ الإسلامَ يُقِرُّ روابطَ كثيرة، منها رابطة الإنسانيَّة، ورابطةُ الرَّحِم. ثم عرضَ المؤلِّفُ لموضوع (الولاء والبراء) في الإسلام.

وتنفردُ دراستي عن هذه الدراسات بما يأتي:

١- تقسيمُ علاقةِ المسلمِ بأهلِ الكتابِ إلى مواقفَ ثلاثة، هي (الموقفُ العَقَدِيُّ)، و(الموقفُ التعايُشِيُّ)، و(الموقفُ الجهاديُّ)، والاستدلالُ من القرآن والسنة على هذه المواقف.

٢- رَدُّ الشُّبُهاتِ التي أُثيرَتْ في العصرِ الحديث حولَ كُلِّ موقفٍ من هذه المواقف الناظمة لعلاقةِ المسلم بأهلِ الكتاب.

منهجُ البحث:

لتحقيقِ مقاصدِ هذا البحث اتَّبَعْتُ المناهجَ البحثيَّة الآتية:

١- المنهجُ الاستقرائي: ويتمثَّلُ في استقراءِ النصوصِ القرآنية المتَّصِلة بـ(أهل الكتاب)، وما يتعلَّقُ بها من أحاديثَ شريفة.

٢- المنهجُ التحليلي: ويتمثَّلُ في دراسةِ تلك النصوص، وتحليلِ معانيها، بغيةَ الوصولِ إلى مقاصدِها وأغراضِها، والقيم التي تُقرِّرُها، وبغيةَ التوفيقِ بينَ ما ظاهرُه التعارضُ من هذه النصوص.

٣- المنهجُ الاستنباطي: ويتمثَّلُ في استنباطِ الدلالاتِ المُرشِدة إلى اختلافِ أحوالِ العلاقةِ مع (أهل الكتاب)، تبعًا لاختلاف الموقف ما بينَ عَقَدِيٍّ وتعايُشِيٍّ وجهادِيٍّ.

خُطَّةُ البحث:

اقتضَتْ طبيعةُ هذا البحثُ أنْ يكونَ على النحو الآتي:

المقدمة، وتتضمَّنُ أهمية البحث ومنهج دراسته.

التمهيد: خُصُوصِيَّةُ (أهلِ الكتاب) في خطابِ القرآن وتشريعاتِه

المبحث الأول: الموقفُ العَقَدِيُّ من (أهل الكتاب) وردُّ الشُّبُهاتِ حولَه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: بيانُ القرآن للموقفِ العقديِّ من (أهل الكتاب)

المطلب الثاني: شُبُهاتٌ حولَ الموقفِ العقديِّ من (أهل الكتاب)

المبحث الثاني: الموقفُ التعايُشِيُّ من (أهل الكتاب) وردُّ الشُّبُهاتِ حولَه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: بيانُ القرآن للموقفِ التعايُشيِّ من (أهل الكتاب)

المطلب الثاني: شُبُهاتٌ حولَ الموقفِ التعايُشيِّ من (أهل الكتاب)

المبحث الثالث: الموقفُ الجِهادِيُّ من (أهل الكتاب) وردُّ الشُّبُهاتِ حولَه

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: بيانُ القرآن للموقفِ الجَهادِيِّ من (أهل الكتاب)

المطلب الثاني: شُبُهاتٌ حولَ الموقفِ الجِهادِيِّ من (أهل الكتاب)

الخاتمة، وتتضمَّنُ أهمَّ النتائج التي توصَّلَ إليها الباحث.

واللهَ تعالى أسألُ أنْ يجعلَ هذا البحث خالصًا لوجهه الكريم، وأنْ يكتُبَ لي أجرَه وذُخْرَه، وأنْ يتجاوزَ لي عما كانَ من خطأ أو نسيان، وأنْ ينفعَ به كاتبه وقارئِه، {واللهُ يقولُ الحقَّ وهو يهدي السبيل}.

التمهيد

خُصُوصِيَّةُ (أهلِ الكتاب) في خطابِ القرآن وتشريعاته

إنَّ كتابَ الله تعالى أنزلَ نورًا وهدًى للناس، يدعُوهُم جميعًا إلى الدخولِ في الإسلام، على اختلافِ ألوانِهم وأجناسِهم وأديانِهم: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان/١)، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ/٢٨). وذكرَ القرآنُ عددًا من الطوائفِ والأديان، وخَصَّها ببيانِ مُعْتَقداتِها، وما فيها من زَيْغٍ وضلال، و"لقد وَقعَ الجَدَلُ في القرآن الكريم مع الفِرَق الأربَعِة الضالَّة: المشركين واليهود والنصارى والمنافقين، وكانَ هذا الجَدَلُ والاحتجاجُ على طريقَيْن: الأوَّل: أن تُذكَرَ العقيدةُ الباطلةُ، ويُنَصَّ على شناعتها وفسادِها واستنكارها فحَسْب، والثاني: أن تُحَدَّدَ الشُّبُهاتُ التي وَقعَتْ فيها هذه الفِرَق، ثم تُعْرَضَ حُلولُها وأجوبتُها بالأدلَّة البرهانيَّة أو الخطابيَّة"(١).

ونجِدُ عددًا من سُوَر القرآن تذْكُرُ هذه الفِرَق الأربعَ جميعًا وتُجادِلُهم، وتُبْطِلُ شُبهاتِهم، كسُوَر البقرة وآل عمران والنساء والمائدة؛ فقد ذُكِرَ فيها كُلٌّ من اليهودِ والنصارى والمشركين والمنافقين، ودُعُوا فيها إلى اتباع الحق، وترك الجدال بالباطل، والدخولِ الصادق في دينِ الإسلام.

غيرَ أنَّنا نجِدُ القرآنَ الكريمَ قد أوْلَى اليهودَ والنصارى عنايةً خاصَّة، فيما يتَّصِل بخطابهم والتشريعاتِ المتعلِّقةِ بهم؛ فقد سَمَّاهُم (أهلَ الكتاب)، وناداهُم بهذا التعبير [يا أهلَ الكتاب] (١٢) مرَّة، كما ناداهُم بتعبير [يا أيُّها الذين أوتُوا الكِتاب]، في قولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾ (النساء/٤٧).

هذا في أسلوبِ الخطاب، وأمَّا في غيرِ أسلوبِ الخطاب، فقد وردَ تعبيرُ [أهل الكتاب] في القرآن (١٩) مرَّة، ووردَ تعبيرُ [الذينَ آتيناهُمُ الكِتاب] (٧) مرَّات، وتعبيرُ [الذينَ أوتُوا الكتاب] (١٦) مرَّة، وتعبيرُ [الذينَ أوتُوا نَصيبًا من الكتاب] (٣) مرَّات.

واستعمالُ القرآن لهذه التعبيرات في الحديث عن اليهود والنصارى ينطوي على تشريفٍ وتكليف؛ فهو من جهةٍ تشريفٌ لهم وتذكيرٌ بأنَّ اللهَ تعالى أنزَلَ عليهمِ الكتابَ، وأنعَمَ عليهم بالعلم، فهم إذًا أولَى الناس بالإيمان بالكتاب الخاتَم، وبالنبيِّ الخاتَم صلى الله عليه وسلم، لأنَّهم أهلُ كتابٍ وعلم، وليسُوا أهلَ جَهالَةٍ كالوَثَنِيِّينَ

---

(١) الدهلوي، الفوز الكبير في أصول التفسير، ص٣٣.

ونحوهم. وهو من جهةٍ أخرى تكليفٌ لهم بأنَّ الإيمانَ منهم أوجَب، وأنَّ وزرَهُم أعظمُ إنْ هم كفروا وهم يشهدون، وأنكَروا وهم يعلمون: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾ (آل عمران/٧٠).

"ولقد كانَ أهلُ الكتاب وقتَها –وما يزالونَ حتى اليوم- يشهدُونَ الحقَّ واضحًا في هذا الدين، سواءٌ منهم المُطَّلِعُونَ على حقيقة ما جاءَ في كُتُبهم عنه من بشارات وإشارات –وكانَ بعضُهم يُصَرِّحُ بما يجِدُ من هذا كلِّه، وبعضُهم يُسْلِمُ بناءً على هذا الذي يجِدُه في كُتُبه ويشهَدُه مُتَحَقَّقًا أمامَه- وسواءٌ كذلك غيرُ المُطَّلِعين، ولكنَّهم يجدونَ في الإسلام من الحقِّ الواضح ما يدعو إلى الإيمان.. غيرَ أنَّهم يكفُرون.. لا لِنَقْصٍ في الدليل، ولكنْ للهوى والمصلحة والتضليل.. والقرآنُ يُناديهم: "يا أهلَ الكتاب"؛ لأنَّها الصفةُ التي كانَ من شأنِها أنْ تقودَهُم إلى آياتِ الله، وكتابه الجديد"[١].

قال سيد طنطاوي: "وهذا الوصفُ _[(أهلُ الكتاب)]_ في ذاتِه فيه اعترافٌ بهم في ماضيهم وحاضرهم، وفيه تزكِيَةٌ لهم على غيرهم ممَّنْ لم يَرِثْ ما ورثوهُ من الكُتُبِ السماويَّة. وقد أوردَ القرآنُ الكريمَ هذا الوصفَ أحيانًا على سبيل التكريم لهم والتلطُّفِ معهم، والمديح لمَنْ يستحقُّ المديحَ منهم، وأحيانًا على سبيل التوبيخ لهم، والتعريض بهم، والذمِّ لأخلاقِهم ومسالكِهم"[٢].

وأمَّا خُصوصيَّةُ أهل الكتاب في التشريعات القرآنيَّة، فإنَّ القرآنَ الكريمَ قد خَصَّهم ببعضِ الأحكام، ومن ذلك ما يأتي:

١- أباحَ اللهُ تعالى للمسلمينَ أكلَ طعامِهم، وأحلَّ ذبائحَهُم؛ فقال سبحانَه:

﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡ ﴾ (المائدة/٥)

قال صاحبُ (المنار): "وَلَمَّا كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ فِي الْأَصْلِ أَهْلَ تَوْحِيدٍ، ثُمَّ سَرَتْ إِلَيْهِمْ نَزَغَاتُ الشِّرْكِ مِمَّنْ دَخَلَ فِي دِينِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يُشَدِّدُوا فِي الْفَصْلِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَاضِيهِمْ، وَكَانَ هَذَا مَظِنَّةَ التَّشْدِيدِ فِي مُؤَاكَلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُنَاكَحَتِهِمْ، كَمَا شُدِّدَ فِي أَكْلِ ذَبَائِحِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَنِكَاحِ نِسَائِهِمْ، بَيَّنَ اللهُ لَنَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَلَّا نُعَامِلَ أَهْلَ الْكِتَابِ مُعَامَلَةَ الْمُشْرِكِينَ فِي ذَلِكَ؛ فَأَحَلَّ لَنَا مُؤَاكَلَتَهُمْ، وَنِكَاحَ نِسَائِهِمْ"[٣].

"وهُنا نطَّلِعُ على صفحةٍ من صفحات السماحة الإسلاميَّة في التعامل مع غير المسلمين، ممَّنْ يعيشونَ في المجتمع الإسلامي (في دار الإسلام)، أو تربطُهُم به رابطةُ الذمَّةِ والعهد من أهل الكتاب. إنَّ الإسلامَ لا يكتفي بأنْ يترُكَ لهم حُرِّيَّتَهم الدينيَّة، ثم يعتزلُهم في المجتمع الإسلامي مَجْفُوِّينَ

---

(١) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج١، ص٤١٤.
(٢) طنطاوي، محمد سيد، بنو إسرائيل في القرآن والسنة، ص١٢٣.
(٣) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، ج٦، ص١٤٧.

معزولينَ أو منبوذين، إنَّما يشملُهم بجُوٍّ من المشاركة الاجتماعيَّة، والمودَّة، والمجاملة والخلطة، فيجعَلُ طعامَهم حِلًّا للمسلمين، وطعامَ المسلمينَ حِلًّا لهم كذلك؛ ليتمَّ التزاورُ والتضايُفُ والمؤاكَلَةُ والمُشارَبَة، ولِيَظَلَّ المُجتمعُ كلُّه في ظلِّ المودَّة والسماحة. وكذلك يجعَلُ العفيفاتِ من نسائِهم _ وهُنَّ المُحصنَاتُ بمعنى العفيفاتِ الحرائر_ طيِّباتٍ للمسلمين، ويَقْرِنُ ذِكْرَهُنَّ بذكرِ الحرائر العفيفات من المسلمات. وهي سماحةٌ لم يشعُرْ بها إلا أتباعُ الإسلام من بينِ سائرِ أتباعِ الديانات والنِّحَل؛ فإنَّ الكاثوليكيَّ المسيحيَّ لَيَتَحَرَّجُ من نكاح الأرثُوذِكْسيَّة، أو البروتستانتيَّة، أو المارونيَّة المسيحيَّة، ولا يُقْدِمُ على ذلك إلا المُتَحَلِّلونَ عندَهُم من العقيدة!"[1].

٢- أباحَ اللهُ تعالى للمسلمينَ الزواجَ بالكتابيَّة، بخلافِ المُشْركة؛ فقالَ سبحانَه في تمام الآية السابقة: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ (المائدة/٥)

قال الزحيلي في تعليل إباحة الزواج بالكتابيَّة: "والسبب في إباحة الزواج بالكتابية بعكس المشركة هو أنها تلتقي مع المسلم في الإيمان ببعض المبادئ الأساسيَّة من الاعتراف بإله، والإيمان بالرسل وباليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب، فوجود نواحي الالتقاء وجسور الاتصال على هذه الأُسُس يضمن توفير حياة زوجية مستقيمة غالبًا، ويُرْجَى إسلامُها؛ لأنها تؤمن بكتب الأنبياء والرسل في الجملة. والحكمةُ في أن المسلم يتزوج باليهودية والنصرانية، دون العكس، هي أن المسلم يؤمن بكل الرسل والأديان في أصولها الصحيحة الأولى فلا خطر منه على الزوجة في عقيدتها أو مشاعرها، أما غير المسلم فلا يؤمن بالإسلام فيكون هناك خطر مُحَقَّقٌ يحمل زوجته على التأثر بدينه، والمرأةُ عادةً سريعةُ التأثر والانقياد، وفي زواجها إيذاءٌ لشعورها وعقيدتها"[2].

٣- وعَدَّ كثيرٌ من العلماء (الجِزْيَة) حُكْمًا خاصًّا بأهلِ الكتاب، فلا تُقْبَلُ من غيرهم من المشركين؛ مُستَدِلِّينَ بقول الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾

---

(1) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج٢، ص٨٤٨.
(2) الزحيلي، وهبة مصطفى ت(١٤٣٦هـ)، الفقه الإسلامي وأدلَّته، ج٧، ص١٥٩.

(التوبة/٢٩)، واختصاصُ أهلِ الكتاب بقبولِ الجزيـة منـهم مسألةٌ خلافيَّـة، وفيها أقوالٌ أخرى، وهذا قولُ جمهورِ الفقهاء[١].

ولا شكَّ أن تشريعَ الجِزية على أهل الكتاب ترسيخٌ للمبدأ القرآني: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة/٢٥٦)، وقد ذكر ابنُ حزمٍ عن ابن جُرَيْج رحمه الله أنه قال: "فِي كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى أَهْلِ الْيَمَنِ: مَنْ كَرِهَ الْإِسْلَامَ مِنْ يَهُودِيٍّ، أَوْ نَصْرَانِيٍّ، فَإِنَّهُ لَا يُحَوَّلُ عَنْ دِينِهِ، وَعَلَيْهِ الْجِزْيَةُ"[٢].

قال صاحب (المنار): "وَمَتَى أَعْطَوُا الْجِزْيَةَ وَجَبَ تَأْمِينُهُمْ وَحِمَايَتُهُمْ وَالدِّفَاعُ عَنْهُمْ، وَحُرِّيَّتُهُمْ فِي دِينِهِمْ بِالشُّرُوطِ الَّتِي تُعْقَدُ بِهَا الْجِزْيَةُ، وَمُعَامَلَتُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ كَالْمُسْلِمِينَ، وَيَحْرُمُ ظُلْمُهُمْ وَإِرْهَاقُهُمْ بِتَكْلِيفِهِمْ مَا لَا يُطِيقُونَ كَالْمُسْلِمِينَ، وَيُسَمَّوْنَ (أَهْلَ الذِّمَّةِ)؛ لِأَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْحُقُوقِ تَكُونُ لَهُمْ بِمُقْتَضَى ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمَّا الَّذِينَ يُعْقَدُ الصُّلْحُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ بعَهْدٍ وَمِيثَاقٍ يَعْتَرِفُ بِهِ كُلٌّ مِنَّا وَمِنْهُمْ باسْتِقْلَالِ الْآخَرِ، فَيُسَمَّوْنَ بأهلِ العهْدِ والمُعاهَدين"[٣].

تلكَ خُلاصَةٌ موجَزَةٌ لما خَصَّ به القرآنُ أهلَ الكتاب، في جانب الخِطاب، وفي جانب التشريعات، وأمَّا موقفُ المسلمِ من أهل الكتاب، فإنَّ القرآنَ الكريمَ يُرشِدُنا إلى أنَّ هذا الموقفَ في الحقيقةِ والواقع ليس موقفًا واحدًا، وإنما هو موقفٌ ذو ثلاثِ شُعَب؛ فهناكَ (الموقفُ العقديُّ)، وهناكَ (الموقفُ التعايُشِيُّ)، وهناكَ (الموقفُ الجِهاديُّ). وهذا ما تتكفَّلُ بتَجْلِيَتِه المباحثُ الثلاثةُ الآتية.

---

(١) ينظر تفصيلُ هذه الأقوال في: الموسوعة الفقهيَّة الكويتيَّة، جماعة من العلماء /وزارة الأوقاف الكويتية، ج١٥، ص١٧٠.

(٢) ابن حزم، المحلى بالآثار، ج٥، ص٤١٦.

(٣) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ج١٠، ص٢٥٥.

المبحث الأول

الموقفُ العقَدِيُّ من (أهل الكتاب) وردُّ الشُّبُهاتِ حولَه

المطلب الأول

بيانُ القرآن للموقفِ العقديِّ من (أهل الكتاب)

لقد كانَ القرآنُ الكريم صريحًا في تقرير عقيدة أهل الكتاب، ووزْنِها بميزانِه الحق، فبيَّنَ أنَّ عقيدةَ الضالّينَ منهم عقيدةٌ باطلةٌ قائمةٌ على الكفر بالله والشركِ به سبحانه؛ لأنَّ أهلَ الكتاب غيَّرُوا وبدَّلُوا ما جاءَتهم به رسلُهم، فأرسلَ اللهُ تعالى رسولَه الخاتَمَ محمدًا صلى الله عليه وسلم، ليُبَيِّنَ لهم الحقَّ الذي كَتَموه، ويُنذرَهم عاقبةَ البقاء على كفرهم، ويُبَشِّرَ مَنْ يُؤمِنُ منهم بالأجر الجزيل: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (المائدة/١٩).

ويُصَرِّحُ القرآنُ بكُفْر أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويصفُهم بالشركِ في آيات عديدة، منها قولُ اللهِ تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ (المائدة/٧٨)، وقولُه: ﴿ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ (المائدة/٧٢)، وقولُه: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ ﴾ (المائدة/٧٣)، وقولُه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (التوبة/٣١)، وقولُه: ﴿ لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴾ (البينة/١)

ويخاطِبُ القرآنُ أهلَ الكتاب المعاصرينَ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم بقولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾ (آل عمران/٧٠)، وبقولِه سبحانه: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (آل عمران/٩٨)، مع أنَّهم يُؤمنون بعيسى والإنجيل، وبموسى والتوراه؛ فكونُ اليهود والنصارى (أهلَ كتاب) لا يمنَعُ من كونِهم كُفَّارًا، كما جاءَ في آياتٍ عديدةٍ من كتابِ اللهِ تعالى.

بل إنَّ القرآنَ يَنصُّ على أنَّ كُلَّ من يُشْرِكُ باللهِ تعالى أو يجحَدُ نبوَّةَ نبيٍّ من الأنبياء فهو الكافرُ حقًّا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (النساء/١٥٠-١٥١)؛ فالمؤمنُ حقًّا هو الذي يُؤْمِنُ بالله وحده، وبكلِّ كتابٍ أنزلَه، وبكُلِّ رسولٍ أرسلَهُ، ولا سيَّما الكتابُ الخاتَم (القرآن)، والنبيُّ الخاتَم (محمد) صلى الله عليه وسلم.

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نَفْسُ محمَّدٍ بيده، لا يسمَعُ بي أحدٌ من هذه الأمَّة، يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يُؤْمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ به إلا كانَ من أصحاب النار"(١).

قال ابن تيمية رحمه الله: "إنَّ اليهود والنصارى –الذينَ لم يُؤمِنُوا بمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وبما جاءَ به- كُفَّارٌ كُفْرًا معلومًا بالاضطرار من دين الإسلام"(٢).

ومع هذا الوضوح والصرامَة في توصيفِ عقيدةِ أهل الكتاب، وأنَّها عقيدةٌ باطلة، وأنَّها كُفْرٌ في حُكْمِ الإسلام، إلا أنَّ الإسلامَ مع ذلك يحترِمُ حُرِّيَّةَ الاعتقاد، ويرفُضُ كتابُه الإكراهَ على الدين، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (البقرة/٢٥٦): "أي لا تُكْرِهُوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام؛ فإنَّه بيِّنٌ واضحٌ، جَلِيٌّ دلائلُه وبراهينُه، لا يحتاجُ إلى أنْ يُكْرَهَ أحدٌ على الدخول فيه، بل مَنْ هداهُ اللهُ للإسلام، وشَرَحَ صَدْرَه، ونَوَّرَ بصيرتَه، دَخَلَ فيه على بيِّنَة. ومَنْ أعمَى اللهُ قلبَه، وخَتَمَ على سمعه وبصره، فإنَّه لا يُفيدُه الدخولُ في الدين مُكْرَهًا مقسورًا"(٣).

فالإيمانُ في حُكْمِ القرآن ليس مُجَرَّدَ كلمةٍ تُلْفَظُ باللسان، أو طُقوسٍ تُؤَدَّى بالأبدان، بل أساسُه إقرارُ القلب وإذعانُه وتسليمُه، ولهذا لم يعرف التاريخُ شعبًا مُسْلِمًا حاولَ إجبارَ أهلِ الذمَّة على الإسلام، كما أقرَّ بذلك المُؤَرِّخونَ الغربيُّونَ أنفسُهم(٤).

والقرآنُ الكريمُ يستنكِرُ الإكراهَ على الإيمان، قال تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس/٩٩).

قال صاحبُ (المنار): "(أفأنتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونُوا مؤمنين) أيْ إنَّ هَذَا لَيْسَ فِي اسْتِطَاعَتِكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ، وَلَا مِنْ وَظَائِفِ الرِّسَالَةِ الَّتِي بُعِثْتَ بِهَا أَنْتَ وَسَائِرُ الرُّسُلِ ... وَهَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي أَنَّ الدِّينَ لَا يَكُونُ بِالْإِكْرَاهِ، أَيْ لَا يُمْكِنُ لِلْبَشَرِ وَلَا

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونَسْخ المِلل بملَّتِه، حديث رقم(٣٨٦) ص٧٧.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٣٥، ص٢٠١.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٤١٦.

(٤) ينظر: القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص٦.

يُسْتَطَاعُ، ثمَّ نَزَلَ عِنْدَ التَّنْفِيذِ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة/٢٥٦) أيْ لَا يَجُوزُ وَلَا يَصِحُّ بِهِ، وَذَكَرْنَا فِي تَفْسِيرِنَا سَبَبَ نُزُولِهَا، وَهُوَ عَزْمُ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْعِ أَوْلَادٍ لَهُمْ كَانُوا تَهَوَّدُوا مِنَ الْجَلَاءِ مَعَ بَنِي النَّضِيرِ مِنَ الْحِجَازِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يُخَيِّرُوهُمْ. وَأَجْمَعَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ إِيمَانَ الْمُكْرَهِ بَاطِلٌ لَا يَصِحُّ، لَكِنَّ نَصَارَى الْإِفْرَنْجِ وَمُقَلِّدِيهِمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرْقِ لَا يَسْتَحُونَ مِنَ افْتِرَاءِ الْكَذِبِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَمِنْهُ رَمْيُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُكْرِهُونَ النَّاسَ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَيُخَيِّرُونَهُمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّيْفِ يَقُطُّ رِقَابَهُمْ، عَلَى حَدِّ الْمَثَلِ: (رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ)!!"(١).

وأمَّا المُنصِفونَ من الغربيِّينَ فقد شَهِدُوا بالحق؛ قال المؤرِّخ الفرنسي (جوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب): "رأينا من آي القرآن التي ذكرناها آنفًا أنَّ مسامحة محمَّدٍ لليهود والنصارى كانت عظيمةً إلى الغاية، وأنَّه لم يقُلْ بمثلها مؤسِّسُو الأديانِ التي ظهرَتْ قبلَه، كاليهوديَّة والنصرانيَّة على الخصوص، وسنَرَى كيفَ سارَ خلفاؤُه على سُنَّتِه، وقد اعترفَ بذلك التسامُح بعضُ علماء أوربَّة المُرتابونَ أو المؤمنونَ القليلونَ الذينَ أنعَمُوا النظرَ في تاريخ العرب. والعباراتُ الآتيةُ أقْتَطِفُها من كُتُبِ الكثيرينَ منهم تُثْبتُ أنَّ رأيَنا في هذه المسألة ليس خاصًّا بنا، قال روبرتسون في كتابه (تاريخ شارلكن): [إنَّ المسلمينَ وحدَهُم هم الذين جَمَعُوا بينَ الغيرةِ لدينِهم، وروح التسامُح نحوَ أتباع الأديان الأخرى، وإنَّهم _مع امتشاقِهم الحُسامَ نَشْرًا لدينِهم_ تركُوا مَنْ لم يرغَبُوا فيه أحرارًا في التمسُّك بتعاليمهم الدينيَّة]. وقال ميشود في كتابه (تاريخ الحروب الصليبيَّة): [إنَّ القرآنَ الذي أمَرَ بالجهاد مُتسامِحٌ نحوَ أتباع الأديان الأخرى، وقد أعفى البطاركةَ والرُّهبانَ وخَدَمَهم من الضرائب، وحرَّمَ محمدٌ قتلَ الرهبان؛ لعُكُوفِهم على العبادات، ولم يَمَسَّ عمرُ بنُ الخطَّاب النصارى بسوءٍ حينَ فَتَحَ القدس، فذبَحَ الصليبيُّونَ المسلمينَ وحرَّقوا اليهودَ بلا رحمةٍ وَقْتَما دخلُوها]"(٢).

المطلب الثاني

شُبُهاتٌ حولَ الموقفِ العقديِّ من (أهل الكتاب)

بالرغم من هذا الوضوح في الآياتِ القرآنيَّة العديدة حولَ الموقفِ العَقديِّ من أهلِ الكتاب، إلا أنَّنا نجدُ عددًا من الشُّبُهاتِ، تُثارُ حولَه، تشكيكًا فيما قطعَ به القرآن، ونَصَّ عليه نَصًّا لا غموضَ فيه ولا إشكال، ولا تردُّدَ فيه ولا احتمال، وفيما يأتي بعضُ هذه الشُّبهات، مع ردِّها ودفعِها:

أولًا: الزَّعْمُ بأنَّ تكفيرَ النَّصارى قولُ المفسِّرين وليس حُكْمَ القرآن.

---

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ج١١، ص٣٩٥.
(٢) لوبون، غوستاف ت(١٩٣١م)، حضارة العرب، ص١٣٧-١٣٨.

يقولُ المطران (جورج خضر): "إنَّ ثمَّة فرقًا بينَ الوحي وتفسيره؛ فالمفسِّرونَ كلُّهم بَشَر، وبينَهم تبايُن، واللاهوتيُّونَ وعلماءُ الكلام والفقهاءُ بَشَر، ما جانِبُ الإلهيَّةِ فيما أتَوْا به؟ وما جانِبُ الناسوتيَّةِ المُعَرَّضُ للزلل؟"(١)، ثم يقول: "إذا صَحَّتْ نَظريَّتُنا هذه، فإذا كان النص القرآني قد خاطب (النصارى)، فإن مسيحيِّي كل العصور منذ التنزيل القرآني حتى يومنا هذا غير معنيِّين بما يقوله القرآن عن النصارى، الا بما كان مشتركا بينهما. ويبدو أنَّ تمسك المسيحيين طوال الفترات الماضية بهذه التسمية يعود الى ذكرها في القرآن ضمن لائحة الأديان المعترف بها".

ثم يقول: "إنَّ البحثَ التفسيريَّ في القرآن ممكِنٌ ورودُه على غير الطرق المألوفة دونَ تخطئةِ القرآن، ولعلَّ المسلمينَ أيضًا أنْ يبحثوا في القرآن من هذا المنظار، بعدَ أنْ تعلَّمُوا مَنْهَجَ العلوم النقديَّة، وطبَّقوها على الكتاب المقدَّس، فإذا ما سَوَّغُوا لأنفسهم البحثَ في العهدين القديم والجديد، كما يبحثُ في ذلك الألمانُ ومن تبعَهُم من أهل الغرب والشرق، فلماذا لا يُسَوِّغونَ لأنفسِهم استعمالَ الأسلوبِ نفسِه في الأبحاث القرآنيَّة دونَ أن يُنْكِرُوا الوحيَ القرآني"(٢).

ردُّ هذه الشُّبْهة:

إنَّ فحوى كلام المطران (جورج خضر) هو الادعاءُ بأنَّ بعضَ العقائد المتصلة بالنصارى كالقولِ بالتثليث والبُنُوَّةِ والصَّلْب إنَّما هي من كلامِ المفسِّرين والمؤرِّخين، وليسَتْ من نَصِّ القرآن. وهذا ادِّعاءٌ باطلٌ كُلَّ البطلان؛ فهذه القضايا قضايا قرآنيَّة، نَصَّ عليها القرآنُ صَراحةً في مواضعَ متعدِّدة، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ (المائدة/٧٢)، وقولُه سبحانَه: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ (المائدة/٧٣)، وقولُه جَلَّ في علاه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (النساء/١٥٧)، وقولُه تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة/٣٠)، إلى غير ذلك من الآيات. وبهذا يَتَبَيَّنُ أنَّ ما طلَبَ المطرانُ نقدَه ليس هو البحثَ التفسيري، ولا الوجهة التاريخيَّة، وإنَّما هو في الحقيقةِ كلامُ الله تباركَ وتعالى. وأيُّ نقدٍ لكلامِ الله تعالى يُعَدُّ كفرًا بالله؛ لأنَّ من عقيدة المسلمين الإيمانَ بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حَفِظَ كتابَه من التحريفِ والتبديل، وأنَّه لا يجوزُ أنْ يُشَكَّ في حَرفٍ مما جاءَ في القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت/٤١-٤٢).

---

(١) جورج خضر، العلاقات الإسلامية المسيحية، ص٢١٢؛ نقلًا عن الشوحة، خالد نواف، الحوار مع الآخر في القرآن الكريم عند المفسرين والمفكرين المعاصرين، ص١٦٧.

(٢) جورج خضر، العلاقات الإسلامية المسيحية، ص٢١٢-٢١٨.

ويحاولُ المطرانُ في كلامِه السابق جعلَ القرآن الكريم كَكُتبِ اليهود والنصارى؛ رفعًا من مكانةِ كُتُبهم المقدَّسة الموجودة حاليًّا، وتقليلًا من شأن القرآن في نفوس المؤمنين به، بالدعوة إلى نقدِه وإعادة النظر فيه. وهذا الأمرُ ليس غريبًا عليهم؛ لأنَّهم يعرفونَ في قرارة أنفسِهم أنَّ كُتُبَهُم مُحَرَّفَةٌ مُبَدَّلَةٌ من صُنع البشر، ونحنُ لا ننكرُ هذه الكُتُب، بل نؤمنُ بها كما أنزلَها اللهُ تعالى على موسى وعيسى عليهما السلام، لا كما كَتَبَها (لوقا) أو (مرقص) أو (يوحنا) من البشر(١).

ثانيًا: الزَّعْمُ بأنَّ بعضَ الآياتِ القرآنيَّة تُثْبِتُ أنَّ من النَّصارى مُؤمنين.

وَضَعَ (محمود أبو ريَّة) في كتابه (دينُ الله واحد) عنوانًا عريضًا نَصُّه: "اليهودُ والنصارى أهلُ كتاب وليسُوا بمشركينَ ولا كافرين"(٢)، وحشَدَ في هذا الكتاب ما زَعَمَ أنَّها أدلَّةٌ قاطعةٌ، وبراهينُ ساطعةٌ على أنَّ اليهودَ والنصارى لا يُعَدُّونَ مشركينَ ولا كافرين! ومن جملةِ ما استدلَّ به قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة/٦٢)، قال: "فكُلُّ مَن يؤمِنُ بالله واليومِ الآخر، ويعملُ صالحًا، فهو ناجٍ بفضلِ الله إنْ شاءَ الله؛ ذلكَ بأنَّ هذه الصفاتِ الثلاثَ هي أركانُ الدينِ الأساسيَّة على لسانِ كُلِّ رسول، فمَن اتَّبَعَ أحكامَها، وأقامَ أصولَها –من أيِّ دينٍ كانَ- فازَ برضوانِ الله، ومَنْ أخَلَّ بشيءٍ منها واتَّبَعَ هواه، فأمرُه إذَنْ إلى الله، إنْ شاءَ رحِمَه، وإنْ شاءَ عَذَّبَه، وهو سبحانَه غفور رحيم، لا يُسألُ عمَّا يفعل"(٣). ومعنى هذا الكلامِ أنَّ كُلًّا من اليهوديِّ والنصرانيِّ لا يلزَمُه الإيمانُ بمحمد صلى الله عليه وسلم لِيَنْجُوَ يومَ القيامة، بل يكفيهِ الالتزامُ بدينه، والإيمانُ بالله واليوم الآخر، والعملُ الصالح!!

وبعضُ الناس يستدلُّ على أنَّ من النصارى مَنْ لا يُعَدُّ كافرًا بقولِ الله تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران/١١٣-١١٥)، ويقول: إنَّ هذه الآيات فيها ثناءٌ واضحٌ على بعضِ أهلِ

---

(١) ينظر: الشوحة، خالد نواف، الحوار مع الآخر في القرآن الكريم عند المفسرين والمفكرين المعاصرين، ص١٦٨-١٦٩.

(٢) أبو ريَّة، محمود، دينُ الله واحد، ص٧٤ وما بعدها.

(٣) أبو ريَّة، محمود، دينُ الله واحد، ص١٦.

الكتاب، ووصفٌ لهم بالإيمان والتقوى والصلاح، وإذْنٌ فليسَ كُلُّ أهلِ الكتاب كُفَّارًا، بل منهم مؤمنونَ أتقياءُ صالحون!!

واستدلَّ الدكتور (محمد عمارة) في كتابه (الإسلام والوحدة القوميَّة) على نجاةِ النصارى يومَ القيامة مع عدمِ إيمانِهم بمحمد صلى الله عليه وسلم بقولِ الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة/٨٢)، فذكَرَ أنَّ هذا ثناءٌ من الله على طائفةٍ من أهل الكتاب بَقُوا على دينِهم بعدَ بعثةِ محمد صلى الله عليه وسلم، "ومع ذلك نالُوا المَثوبة بالخلود في جنات تجري من تحتها الأنهار، فقولُه سبحانَه: (وما جاءَنا من الحق) هو شريعةُ عيسى عليه السلام"(١). ويقولُ قبلَ ذلك في الكتاب نفسه: "إذا ما وَقَفَ أهلُ الكتاب من أتباعِ شرائعِ الرسل الذينَ سبقُوا محمَّدًا صلى الله عليه وسلم عند التصديق برسالة رسلِهم، وأبَوُا التصديقَ برسالة محمد ونبوَّتِه، مع توحيدهم وعملِهم الصالحات، فإنَّ ذلك الوقوفَ وهذا التوقُّفَ لا يُخْرِجُهم من إطار الدين الواحد، ولا حظيرة التديُّن بالإسلام، فموقفُهم هذا هو انحراف. والفرقُ بينَ مَنْ يؤْمِنُ بمحمَّدٍ وبكُلِّ الرسل، وبينَ الذينَ يجحَدُونَ نُبوَّتَه ورسالتَه، مع توحيدِهم وطاعتِهم، كمَثَلِ الفرق بينَ إيمانِ المؤمن الخالي من البدَع، وبينَ إيمانِ مَنْ تشوبُ البدَعُ إيمانَه"(٢).

ردُّ هذه الشُّبَه:

أمَّا استدلالُ أبي ريَّة بآية البقرة، فهو استدلالٌ باطل؛ لأنَّ القرآنَ يُصَدِّقُ بعضُه بعضًا، ويُفَصِّلُ بعضُه بعضًا، وقد بيَّنَ الله تعالى في آياتٍ أُخرى ما الإيمانُ المَرْضِيُّ عندَهُ سبحانَه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء/١٥٠-١٥١)، فهذه الآيةُ تدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ الذي يَكْفُرُ بمحمد صلى الله عليه وسلم –وهو سيِّدُ الرسل وخاتمُهم- كافرٌ حَقًّا، ومُتَوَعَّدٌ بالعذاب المُهين في الآخرة، فكيفُ يقولُ أبو ريَّة: إنَّه (ناجٍ بفضلِ الله إنْ شاءَ الله)؟!

بل ماذا يقولُ أبو ريَّة عن النصوص القرآنيَّة التي تُكَفِّرُ النصارى صراحة، كقولِه تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة/٧٢)، وقولِه

---

(١) عمارة، محمد الإسلام والوحدة القومية، ص٦٤؛ نقلًا عن الشوحة، خالد نواف، الحوار مع الآخر في القرآن الكريم عند المفسرين والمفكرين المعاصرين، ص١٦٧.

(٢) المرجع السابق، ص٥٥.

سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ (المائدة/٧٣)؟! إنَّ مقتضى كلام أبي ريَّة أنَّ كُلَّ إنسانٍ مُخَيَّرٌ في اتباع إحدى الأديان الثلاثة (اليهودية والمسيحيَّة والإسلام)؛ لأنَّ الدينَ الحقَّ المرضيَّ عند الله –بزعم أبي ريَّة- ليس هو الإسلامَ وحدَه، بل كُلُّ هذه الأديان مَرضيَّة أيضًا، وإذن فلا يلزَمُ الإنسانَ أنْ يكونَ مسلمًا، بل يمكنُه أنْ يكونَ نصرانيًّا أو يهوديًّا إن شاء، وله في الآخرة الفوزُ والرضا والقبول!
وإذا كانَ اتِّباعُ اليهوديَّةِ والنصرانيَّة مقبولًا عندَ الله –بزعم أبي ريَّة-، فلماذا قالَ اللهُ لنبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ (البقرة/١٢٠) أليسَ مقتضى هذه الآية أنَّ اليهوديَّة والنصرانيَّة ضلالٌ لا هُدى وأنَّ الإسلامَ هو الهُدى وحدَه؟!
قال الطبري: "يعني بقوله جل ثناؤه: (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ): وليست اليهود، يا محمد، ولا النصارى براضية عنك أبدًا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق؛ فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الأُلْفَةِ والدين القيِّم. ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم؛ لأن اليهودية ضدُّ النصرانية، والنصرانية ضدُّ اليهودية، ولا تجتمع النصرانية واليهودية في شخص واحد في حال واحدة، واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك، إلا أن تكون يهوديًّا نصرانيًّا، وذلك مما لا يكون منك أبدًا؛ لأنك شخص واحد، ولن يجتمع فيك دِينان متضادَّان في حال واحدة. وإذا لم يكن إلى اجتماعهما فيك في وقت واحد سبيل، لم يكن لك إلى إرضاء الفريقيْنِ سبيل. وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل، فالزم هدى الله الذي لجمع الخلق إلى الألفة عليه سبيل"(١).
وكيفَ يقولُ أبو ريَّة: (إنَّ اليهودَ والنصارى يؤمنونَ بالله واليوم الآخر) وقد نَصَّتْ آيةُ التوبة على أنَّهم لا يؤمنونَ بالله ولا باليوم الآخر، وأنَّ دينَهم دينُ باطلٍ، وليس دينَ حقٍّ؟ قال سبحانه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ (التوبة/٢٩) ثم ماذا يقولُ أبو ريَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (آل عمران/٨٥)؟ أليستْ هذه الآيةُ نَصًّا في أنَّ الدينَ المقبولَ عندَ اللهِ تعالى هو الإسلامُ وحدَه؟ وهو هنا ما جاءَ به محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم.

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج١، ص٦٧٨-٦٧٩.

إنَّ التفسيرَ الصحيحَ لآية البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة/٦٢) هو ما قالَه سادتُنا المفسرون: "إنَّ الْمُرَادَ –[أي بـ(الذين آمنوا)] الَّذِينَ صَدَّقُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ وَصَارُوا مِنْ جُمْلَةِ أَتْبَاعِهِ، وَكَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ حَالَ هَذِهِ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَحَالَ مَنْ قَبْلَهَا مِنْ سَائِرِ الْمِلَلِ يَرْجِعُ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ أَنَّ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا اسْتَحَقَّ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَجْرِ، وَمَنْ فَاتَهُ ذَلِكَ فَاتَهُ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَالْأَجْرُ دِقُّهُ وَجِلُّهُ. وَالْمُرَادُ بِالْإِيمَانِ هَاهُنَا هُوَ مَا بَيَّنَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْلِهِ لَمَّا سَأَلَهُ جِبْرِيلُ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ: (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)، وَلَا يَتَّصِفُ بِهَذَا الْإِيمَانِ إِلَّا مَنْ دَخَلَ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَمَنْ لَمْ يؤمِنْ بمحمد صلّى الله عليه وَسَلَّمَ وَلَا بِالْقُرْآنِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، وَمَنْ آمَنَ بِهِمَا صَارَ مُسْلِمًا مُؤْمِنًا، وَلَمْ يَبْقَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَا مَجُوسِيًّا"(١).

"وبهذا نفهَمُ أنَّ الآيةَ ليستْ مدحًا لليهود والنصارى في زمن محمد إلى الآن، بل من اتَّصفَ بتلكَ الصفاتِ سابقًا، ومَنْ آمَنَ وحَسُنَ إيمانُه لاحقًا، وهذا من أساليبِ الدعوة لهم لاتِّباع الدين الحق"(٢).

فكُلُّ أتباع الأنبياءِ السابقينَ مطالَبونَ حتمًا بالإيمانِ بخاتَمِ النبيِّينَ محمد صلى الله عليه وسلم، واتِّباع شريعتِه؛ مصداقًا لقولِه سبحانَه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (آل عمران/٨١).

قال ابن كثير: "فَكَانَ إِيمَانُ الْيَهُودِ: أَنَّهُ مَنْ تَمَسَّكَ بِالتَّوْرَاةِ وَسُنَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى جَاءَ عِيسَى. فَلَمَّا جَاءَ عِيسَى كَانَ مَنْ تَمَسَّكَ بِالتَّوْرَاةِ وَأَخَذَ بِسُنَّةِ مُوسَى، فَلَمْ يَدَعْهَا وَلَمْ يَتَّبِعْ عِيسَى، كَانَ هَالِكًا. وَإِيمَانُ النَّصَارَى أَنَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِالْإِنْجِيلِ مِنْهُمْ وَشَرَائِعِ عِيسَى كَانَ مُؤْمِنًا مَقْبُولًا مِنْهُ حَتَّى جَاءَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَنْ لَمْ

---

(١) الشوكاني، فتح القدير، ج١، ص١١٧-١١٨، وينظر على سبيل المثال: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج١، ص٥٣٦-٥٣٧، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١، ص٤٠٧، والبيضاوي، أنوار التنزيل، ج١، ص١٥٨، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص١٤٧-١٤٨، والألوسي، روح المعاني، ج١، ص٤٤٢.

(٢) المجالي، محمد خازر، الآيات المادحة لأهل الكتاب – عرض وبيان، بحث منشور في مجلة (دراسات) – الجامعة الأردنية، المجلد (٣١) – العدد (١) – سنة ٢٠٠٤م، ص١٩٦.

يَتَّبِعْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ وَيَدَعْ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ سُنَّةِ عِيسَى وَالْإِنْجِيلِ كَانَ هَالِكًا"(١).

وأمَّا الاستدلالُ بآياتِ آل عمران، وهي قولُه تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران/١١٣-١١٥)، فهو استدلالٌ في غير محلّه؛ لأنَّ هذه الآياتِ ليستْ مدحًا لطائفةٍ من أهلِ الكتاب بَقِيَتْ على انتمائِها لأهل الكتاب، بل المقصودُ بها المؤمنونَ من أهلِ الكتاب، وهم طائفةٌ أسلَمُوا واتَّبَعُوا محمدًا صلى الله عليه وسلم؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لمَّا أسلَمَ عبدُ الله بن سلام، وثعلبةُ بن سَعْيَة، وأسدُ بن عُبيد، ومَنْ أسلمَ مِن يهود، فآمَنُوا وصَدَّقُوا ورَغِبُوا في الإسلام، قالت أحبارُ اليهود: ما آمَنَ بمحمد وتَبِعَه إلا شرارُنا، ولو كانُوا خيارَنا ما تركُوا دينَ آبائِهم، وَقالُوا لَهُمْ: لَقَدْ خَسِرْتُمْ حِينَ اسْتَبْدَلْتُمْ بدِينِكُمْ دِينًا غَيْرَهُ، فأنزلَ اللهُ تعالى قولَه: {ليسُوا سواءً} إلى قولِه: {من الصالحين}"(٢).

قال ابن كثير: "والمشهور عند كثير من المفسرين - كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره ، ورواه العوفي عن ابن عباس- أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: (ليسوا سواء) أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: (من أهل الكتاب أمة قائمة) أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشرعه مُتَّبِعَةٌ نبيَّ الله، فهي قائمة، يعني مستقيمة، (يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) أي: يقومون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم، (يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (آل عمران/١٩٩)وهكذا قال هاهنا:(وما يفعلوا من خير فلن يكفروه) أي: لا

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص١٤٨.
(٢) الواحدي، أسباب النزول، ص١٢٢؛ وينظر: الوادعي، مقبل بن هادي، الصحيح المسند من أسباب النزول، ص٥٥.

يضيع عند الله بل يجزيكم به أوفر الجزاء، (والله عليم بالمتقين) أي: لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملًا"(١).

وأمَّا استدلالُ الدكتور (محمد عمارة) بآيةِ المائدة: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة/٨٢)، وزعمُه بأنَّها ثناءٌ على طائفةٍ من النصارى أدركُوا النبيَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم، ولم يؤمنوا برسالتِه، فهذا استدلالٌ مردود، ولا حَظَّ له من الصواب؛ لأنَّ الذي يقرأ سياقَ هذه الآية لا يرتابُ في أنّها مدحٌ وثناءٌ لقومٍ آمنُوا بالنبيِّ الخاتم وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وبالكتاب الخاتم وهو القرآن الكريم. والمرادُ بـ(الرسول) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ ... ﴾ (المائدة/٨٣) هو محمدٌ صلى الله عليه وسلم، والمرادُ بـ(ما جاءَنا من الحق) في قوله سبحانَه: {وما لنا لا نؤمنُ بالله وما جاءَنا من الحق ...} (المائدة/٨٤) هو القرآنُ الكريم.

ولو فرضنا أنَّ المقصودَ بالحقِّ هنا هو شريعةُ عيسى عليه السلام، فهذا لا يدلُّ على عدم وجوب الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ من شريعةِ عيسى وجوبَ الإيمان بمحمد عليهما الصلاة والسلام(٢)، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ (الصف/٦)، وقد تقدَّمَ قريبًا قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ ... ﴾ (آل عمران/٨١).

إنَّ السياقَ الذي جاءَتْ فيه آيةُ المائدة يتحدَّثُ عن أهل الكتاب (اليهود والنصارى)، فتحدَّثَ عن كُفْرِ النصارى لمَّا قالوا: (إنَّ اللهَ هو المسيح ابنُ مريم)، وبَرَّأَ المسيحَ عليه السلام مما ألْصِقَ به، وأكَّدَ السياقُ أيضًا كُفْرَ من قال منهم: (إنَّ اللهَ ثالث ثلاثة)، ورغَّبَهم في أنْ يتوبوا إلى الله ويستغفروه، ثم تحدَّثَ السياقُ عن أولئكَ الذينَ غالَوْا في الدين، وعن لَعْنِ الذينَ كفرُوا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم؛ لقبيح أفعالِهم. ثم تجيءُ هذه الآية: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٥٢٧.

(٢) ينظر: الشوحة، خالد نواف، الحوار مع الآخر في القرآن الكريم عند المفسرين والمفكرين المعاصرين، ص٢٨٧.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المائدة/٨٢)، ولا يُعْقَلُ أنْ يَذُمَّ السياقُ القومَ في آيات، وبعدَها مباشرةً يمدَحُهم، إلا أنْ يكونَ المقصودُ طائفةً منهم، وهذا هو الحق؛ فهؤلاءِ الممدوحونَ من المتواضعين، لا من المستكبرين، وهم الذينَ انتَهى أمرُهم بإعلانِ إسلامِهم وإيمانِهم بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن الذي أُنْزِلَ عليه من ربِّه(١).

ثم إنَّه "ليسَ كُلُّ مَنْ قالُوا إنَّهم نصارى إذن داخلينَ في ذلك الحُكْم: (ولتجدَنَّ أقربَهُم مودَّةً للذين آمنوا)، كما يُحاولُ أنْ يقولَ مَنْ يقتطعونَ آياتِ القرآن دونَ تمامِها، إنَّما هذا الحكم مقصورٌ على حالةٍ مُعَيَّنَةٍ لم يَدَع السياقُ القرآنيُّ أمرَها غامضًا، ولا ملامحها مجهولة، ولا موقفها ملتبسًا بموقفٍ سواها في كثير ولا قليل"(٢).

ثم ماذا يقولُ الدكتور (عمارة) في قولِ النبي صلى الله عليه وسلم: "والذي نَفْسُ محمَّدٍ بيده، لا يسمَعُ بي أحدٌ من هذه الأمَّة، يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يُؤْمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ به إلا كانَ من أصحاب النار"(٣)؟ وهو نَصٌّ في أنَّ مَنْ أدركَ بعثةَ النبيِّ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ثم لم يقبَلْ رسالته، ولم يؤمن به، فهو كافرٌ من أهلِ النار.

المبحث الثاني

الموقفُ التعايُشِيُّ من (أهل الكتاب) وردُّ الشُّبُهاتِ حولَه

المطلب الأول

بيانُ القرآن للموقفِ التعايُشيِّ من (أهل الكتاب)

إنَّ أساسَ الموقف التعايشي من أهلِ الكتاب هو القاعدةُ التي أصَّلَها القرآنُ الكريم في قولِ الله سبحانَه: ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة/٨).

وقد شرحَ القرافيُّ في كتابه (الفروق) معنى (البرِّ) الذي ذكرتْهُ هذه الآية في معاملة غير المسلمين؛ فمن ذلك "الرفقُ بضَعِيفِهِمْ، وَسَدُّ خَلَّةِ فَقِيرِهِمْ، وَإِطْعَامُ جَائِعِهِمْ، وَإِكْسَاءُ عَارِيهِمْ، وَلِينُ الْقَوْلِ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ اللُّطْفِ لَهُمْ وَالرَّحْمَةِ لَا عَلَى سَبِيلِ الْخَوْفِ وَالذِّلَّةِ، وَاحْتِمَالُ إذَايَتِهِمْ فِي الْجِوَارِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى إزَالَتِهِ لُطْفًا مِنَّا بِهِمْ لَا خَوْفًا وَتَعْظِيمًا، وَالدُّعَاءُ لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ وَأَنْ يُجْعَلُوا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَنَصِيحَتُهُمْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَحِفْظُ غَيْبَتِهِمْ إذَا تَعَرَّضَ أَحَدٌ لِأَذِيَّتِهِمْ، وَصَوْنُ

---

(١) ينظر: المجالي، محمد خازر، الآيات المادحة لأهل الكتاب – عرض وبيان، ص٢٠٥-٢٠٦.
(٢) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج٢، ص٩٦٤.
(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونَسْخ المِلل بملَّتِه، حديث رقم(٣٨٦) ص٧٧.

أَمْوَالِهِمْ وَعِيَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ، وَجَمِيعِ حُقُوقِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ، وَأَنْ يُعَانُوا عَلَى دَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُمْ، وَإِيصَالُهُمْ لِجَمِيعِ حُقُوقِهِمْ"(١).

وهذه الآيةُ تُؤَكِّدُ أنَّ أصلَ العلاقةِ بينَ المسلمينَ وغيرهم السِّلْمُ لا الحربُ؛ لأنَّ أصلَ العلاقةِ بينَ بني الإنسان هو التعارُفُ والتعاون: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات/١٣).

والإسلامُ يهدِفُ إلى تحقيق السلام للمخلوقات المُكَلَّفة في الدارَيْن: الدنيا والآخرة معًا، وإذا رفضَ بعضُ المخلوقات المُكَلَّفة التعاونَ لتحقيق هذا السلام الشامل، فإنَّ الإسلامَ جاهزٌ أيضًا للتعاوُن على تحقيق السلام في مستوى الحياة الدنيا فقط مع هذه الفئة(٢).

وإذا كانَ لا ينهانا عن البرِّ بالكافر، فإنَّ معاملتَه بالعدل والإنصاف واجبةٌ على المسلم في جميع الأحوال، والعدلُ في الإسلام لا يتَلَوَّنُ حسبَ الأهواء، وهو ليس ذا وَجْهَيْن، كما نراهُ في سياسة كثيرٍ من الدول الديمقراطيَّةِ الكُبْرى اليوم! فاللهُ سبحانَه وتعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة/٨). والبرُّ هو الابتداءُ بالخير، أو مقابَلَةُ الخير بأفضَلَ منه، وهذه المعاملةُ تُسْهِمُ في توفير علاقةٍ طيِّبَةٍ مع المُسالِمينَ من غير المسلمين(٣).

ومن آيات الموقف التعايشيِّ ما وَصَّى به القرآنُ المُسْلِمَ تُجاهَ والِدَيه ولو كانا كافرَيْن: {وإنْ جاهداكَ على أنْ تُشركَ بي ما ليسَ لكَ به عِلْمٌ فلا تُطِعْهُما وصاحبهما في الدنيا معروفًا} (لقمان/١٥)؛ فإنَّ الاختلافَ في العقيدة، والأمرَ بعدَمِ الطاعة في خلافِها، لا يُسْقِطُ حَقَّ الوالِدَيْنِ في المعاملة الطيِّبة، والصُّحبةِ الكريمة، وغايةِ البرِّ والإحسان(٤).

ومن آيات الموقف التعايشي أيضًا ما وصفَ به القرآنُ الأبرارَ بقوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان/٨)، ولم يكن الأسيرُ حين نزلت الآيةُ إلا من المشركين. وقولُ القرآن يجيبُ عن شبهة بعض المسلمين في مشروعية الإنفاق على ذويهم وجيرانهم من المشركين المُصرِّين: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ

---

(١) القرافي، الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق)، ج٣، ص٢٨، الفرق التاسع عشر والمائة.
(٢) ينظر: صيني، سعيد إسماعيل، علاقة المسلمين بغير المسلمين، ص١١.
(٣) ينظر: المرجع السابق، ص٩.
(٤) ينظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج٥، ص٢٧٨٩.

﴿ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ (البقرة/٢٧٢)(١).

وقد ذكرَ بعضُ علماءِ الإسلام أنَّ أساسَ النظرة المُتسامِحَة التي تسودُ المسلمين في معاملة مخالفيهم في الدين يرجعُ إلى الأفكار والحقائق الناصعة التي غَرَسَها الإسلامُ في عقولِ المسلمين وقلوبِهم، وأهمُّ هذه الأفكارِ والحقائق(٢):

١- اعتقادُ كُلِّ مسلمٍ بكرامة الإنسان، أيًّا كانَ دينُه أو جنسُه أو لونُه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء/٧٠)، وهذه الكرامةُ المُقرَّرَة تُوجِبُ لكلِّ إنسانٍ حقَّ الاحترام والرعاية.

٢- اعتقادُ المسلم أنَّ اختلافَ الناس في الدين واقعٌ بمشيئةِ الله تعالى، الذي مَنَحَ هذا النوعَ من خَلْقِه الحرية والاختيار فيما يفعَلُ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ (الكهف/٢٩)، ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾ (هود/١١٨)

٣- أنَّ المسلم ليس مُكَلَّفًا أنْ يُحاسِبَ الكافرينَ على كفرهم، أو يُعاقِبَ الضالِّينَ على ضلالِهم، فهذا ليس إليه، وليس موعدُه هذه الدنيا، إنَّما حسابُهم على الله في يوم الحساب. وبذلك يستريحُ ضميرُ المسلم، ولا يجدُ في نفسه أيَّ أثرٍ للصراع بينَ اعتقادِه بكفر الكافر، وبينَ مطالبتِه ببرِّهُ والإقساطِ إليه، وإقراره على ما يراهُ من دينٍ واعتقاد.

٤- إيمانُ المسلم بأنَّ اللهَ يأمُرُ بالعدل، ويُحِبُّ القِسط، ويدعُو إلى مكارم الأخلاق، ولو مع المشركين، ويكرَهُ الظلم ويُعاقِبُ الظالمين، ولو كان الظلمُ من مسلمٍ لكافر، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ (المائدة/٨)، وقال صلى الله عليه وسلم: "اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ"(٣).

ومن مظاهر التعايُش والتسامُح مع أهل الكتاب تحليلُ الأكلِ من طعامِهم، والزواج من نسائِهم، مع ما يُقرِّرُه القرآنُ من قيامِ الحياة الزوجيَّة على المودَّة والرحمة في قوله

---

(١) ينظر: القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص٤٩.
(٢) ينظر تفصيلُ هذه الحقائق عند القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص٥٣ وما بعدها.
(٣) أخرجه الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، في مُسنَد أنس رضي الله عنه، حديث رقم(١٢٥٤٩)، ج٢٠، ص٢٢.

تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم/٢١)، وهذا في الواقع تسامحٌ كبيرٌ من الإسلام؛ إذ أباحَ للمسلم أنْ تكونَ شريكةُ حياتِه وأمُّ أولادِه غيرَ مسلمة، وأن يكونَ أخوالُ أولادِه وخالاتُهم من غير المسلمين[١].

وجميعُ معاملات المسلم جائزةٌ مع الذمِّيِّ إلا ما حَرَّمَه الإسلامُ؛ قال ابن حزم في (المحلَّى): "وَمُشَارَكَةُ الْمُسْلِمِ لِلذِّمِّيِّ جَائِزَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لِلذِّمِّيِّ مِنْ الْبَيْعِ وَالتَّصَرُّفِ إلَّا مَا يَحِلُّ لِلْمُسْلِمِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ قُرْآنٌ وَلَا سُنَّةٌ بِالْمَنْعِ مِنْ ذَلِكَ. وَقَدْ عَامَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ خَيْبَرَ -وَهُمْ يَهُودٌ- بِنِصْفِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا عَلَى أَنْ يَعْمَلُوهَا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ؛ فَهَذِهِ شَرِكَةٌ فِي الثَّمَنِ، وَالزَّرْعِ، وَالْغَرْسِ. وَقَدْ ابْتَاعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَعَامًا مِنْ يَهُودِيٍّ بِالْمَدِينَةِ، وَرَهَنَهُ دِرْعَهُ فَمَاتَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ رَهْنٌ عِنْدَهُ ... فَهَذِهِ تِجَارَةُ الْيَهُودِ جَائِزَةٌ، وَمُعَامَلَتُهُمْ جَائِزَةٌ، وَمَنْ خَالَفَ هَذَا فَلَا بُرْهَانَ لَهُ"[٢].

وأهلُ الكتاب الذين يعيشُون في المجتمع الإسلاميِّ لهم منزلة خاصَّة؛ إذ يُسَمَّونَ (أهلَ الذمّة)، و(الذمَّة) كلمة معناها العهدُ والضمانُ والأمان والكَفالة[٣]، وإنَّما سُمُّوا بذلك؛ لأنَّ لهم عهدَ الله تعالى، وعهدَ رسولِه صلى الله عليه وسلم، وعهدَ جماعةِ المسلمين أنْ يعيشوا في حمايةِ الإسلام، وفي كَنَفِ المجتمع الإسلامي آمنين مطمَئِنِّين، فهُم في أمان المسلمين وضَمانهم، بناءً على (عَقْدِ الذمَّة) بينَهم وبينَ أهلِ الإسلام. فهذه الذمَّةُ تُعطي أهلَها من غير المسلمين ما يُشْبِهُ في عصرنا الجنسيَّة السياسيَّة التي تُعطيها الدولةُ لرعاياها، فيكتسبونَ بذلك حقوقَ المواطنين، ويلتزمونَ بواجباتِهم.

فالقصدُ من هذا اللفظِ (الذمَّة) أنَّ هؤلاءِ المعاهَدينَ يكونونَ في كَنَفِ الله وعُهْدَتِه وحمايتِه، وأنَّ مَنْ يتعرَّضُ لهم بأيِّ نوعٍ من أنواع الظُّلْم أو الأذى، فقد خالفَ الإسلام، وحادَ عن صراطِه السَّويِّ، واستحقَّ ما تقضي به أحكامُ الإسلام في مثلِ هذه الحالة من تعزير[٤]. ولهذا قال رسولُ الإسلام صلى الله عليه وسلم: "ألاَ مَن ظَلَمَ معاهدًا أو انتقصَه، أو كَلَّفَهُ فوق طاقتِه، أو أخَذَ مِنه شيئًا بغَير طِيب نَفس، فأنا حَجِيجُه يومَ القيامة"[٥].

---

(١) ينظر: القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص٥٣ وما بعدها.

(٢) ابن حزم، المحلى بالآثار، ج٦، ص٤١٦.

(٣) ينظر: ابن فارس، المقاييس في اللغة، ص٣٨٣، وابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص٥٩ مادة (ذَمَمَ).

(٤) ينظر: مجموعة من المؤلفين، معاملة غير المسلمين في الإسلام، ص١٤، والقرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص٧.

(٥) أخرجه أبو داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، حديث رقم(٣٠٥٢) ص٤٦٧، وصحَّحَهُ الألباني.

وقد ذكرَ القرافي في كتابه (الفروق) "أنَّ عَقْدَ الذمَّةِ يُوجِبُ حقوقًا علينا لهم؛ لأنَّهم في جِوارنا، وفي خِفارتنا [حمايتنا]، وذمَّةِ الله تعالى، وذمَّةِ رسوله صلى الله عليه وسلم، ودينِ الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمةِ سوءٍ أو غِيبَةٍ في عِرْضِ أحدِهم، أو نوعٍ من أنواع الأذيَّة، أو أعانَ على ذلك، فقد ضَيَّعَ ذمَّةَ الله تعالى، وذمَّةَ رسوله صلى الله عليه وسلم، وذمَّةَ دين الإسلام"[1].

والقاعدةُ العامَّةُ في معاملة أهل الذمَّة في دار الإسلام أنَّ لهم من الحقوق مثل ما للمسلمين، وعليهم من الواجبات مثل ما على المسلمين. وقد قالَ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: "إِنَّمَا بَذَلُوا الْجِزْيَةَ لِتَكُونَ دِمَاؤُهُمْ كَدِمَائِنَا، وَأَمْوَالُهُمْ كَأَمْوَالِنَا"[2].

ومن حقوق أهل الذمَّة على المجتمع الإسلامي حقُّ حمايتهم من كل عدوان خارجيٍّ، ومن كل ظلم داخليٍّ.

ومن المواقف التطبيقية لهذا المبدأ موقفُ شيخ الإسلام ابن تيمية، حينما تغلَّبَ التتارُ على الشام، وذهب الشيخُ ليكلِّمَ القائد التتريَّ في إطلاق الأسرى، فسمحَ القائدُ التتريُّ بإطلاق أسرى المسلمين، وأبى أن يسمحَ له بإطلاق أهل الذمَّة. فما كان من شيخ الإسلام إلا أن قال: (لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسارى، من اليهود والنصارى؛ فهم أهلُ ذمَّتنا، ولا ندعُ أسيرًا، لا من أهل الذمَّة، ولا من أهل المِلَّة). فلما رأى القائدُ التتريُّ إصرارَ الشيخ وتشدُّدَه أطلقهُم له[3].

ودخل ذمِّيٌّ من أهل حِمْص أبيضُ الرأس واللِّحية على عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فقال: يا أمير المؤمنين، أسألُكَ كتابَ الله، قال عمر: ما ذاك؟ قال: العبَّاسُ بن الوليد بن عبد الملك اغتصبَنِي أرضي، وكان عددٌ من رؤوس النَّاس -وفيهم العبَّاس- بمَجلس عمر، فسأله: يا عبَّاس، ما تقول؟ قال: نعَم، أقْطعَنِيها أبي أميرُ المؤمنين، وكَتَبَ لي بها سِجِلًّا، فقال عمر: ما تقول يا ذمِّيُّ؟ قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتابَ الله تعالى، فقال عمر: نعم، كتابُ الله أحَقُّ أن يُتَّبَع من كتاب الوليد، قُمْ فاردُدْ عليه ضَيْعَتَه يا عباس[4].

وهذه الأحوالُ الناظمةُ لمظاهر الموقفِ التعايشيِّ من أهل الكتاب ليسَتْ مقصورةً على حالة وجودِ الدولة الإسلاميَّة، ووجودِ (عقد الذمَّة) مع أهل الكتاب، بل هذه هي حقيقةُ العيشِ المُشتَركَ الذي يُشَرِّعُه الإسلام؛ تنظيمًا لعلاقة المسلم بأهل الكتاب المسالِمين، ذِمِّيِّينَ كانوا أو مُستأمَنِينَ أو مُعاهِدِينَ.

---

(1) القرافي، الفروق، ج٣، ص٢٨.
(2) نقلَ هذه الكلمة ابنُ قدامة، المغني، ج٩، ص٢٢٣.
(3) ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٢٨، ص٦١٧-٦١٨.
(4) ينظر: ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج١، ص٣٦٦.

المطلب الثاني

شُبُهاتٌ حولَ الموقفِ التعايُشيِّ من (أهل الكتاب)

لا يزالُ أعداءُ الإسلام والجاهلونَ به يُثيرونَ الشُّبُهاتِ على الموقفِ التعايُشيِّ من أهلِ الكتاب، بإيرادِ بعضِ النصوص والوقائع، مع كونِه _كما رأينا_ في غايةِ الإشراق والنَّصاعة، والعدل والسماحة. ولو سَلِمَت النيَّةُ أوَّلًا، وفُهِمَتْ هذه النصوصُ وتلكَ الوقائعُ على وجهِها ثانيًا، لتبَدَّدَتْ ظلماتُ الوَهْم، ولَأشْرَقَتْ أنوارُ الفَهْم، ولَتَبَيَّنَ لكلِّ مُنْصِفٍ أنَّ هذه النصوصَ وتلكَ الوقائع مَنْسَجِمةٌ تمامَ الانسجام مع العدل، الذي اتَّسَمَتْ به علاقاتُ الإسلام مع غير المسلمين.

وفيما يأتي عرضٌ لأهمِّ هذه الشُّبُهات على الموقف التعايشي مع ردِّها:

أولًا: شُبْهةٌ حولَ تشريعِ الجِزْيةِ على أهلِ الكتاب

إنَّ بعضَ المستشرقينَ أثاروا الشُّبْهَةَ حولَ تشريع (الجزية) على أهل الكتاب(١)، الواردة في قول الله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ (التوبة/٢٩)، وفهموها على غير وجهِها، واتَّهَمُوا عدلَ الإسلامِ وسماحتَه، وقالُوا: هل التسامُحُ الإسلاميُّ إذلالُ أهلِ الكتاب، وأخذُ الجزيةِ منهم ظُلْمًا وعدوانًا، مع ذِلَّتِهم وصغارهم؟ أليسَ هذا تضييقًا على الذِّمِّيِّينَ مُنْبَعِثًا عن تَعَصُّبٍ أو بغضاء؟

ردُّ هذه الشُّبهة:

الحقيقةُ والواقعُ يشهدان بأنَّ (الجزية) فضلًا عن كونِها علامة خضوع للحكم الإسلامي هي بَدَلٌ ماليٌّ عن (الخدمة العسكرية) المفروضة على المسلمين؛ لأنَّ أهلَ الكتاب في الدولة الإسلاميَّة لا يُكَلَّفونَ بالقتال من أجل فكرةٍ يعتقدونَ ببطلانِها، وفي سبيلِ دينٍ لا يؤمنون به، فَفُرِضَ عليهم الإسهامُ في نفقاتِ الدفاع والحماية للوطن عن طريق (الجزية). ثم إنَّ الجزية على أهل الكتاب هي نوعٌ من أنواع الضريبة التي تفرضُها أيُّ حكومةٍ في أيِّ عصرٍ على رعاياها؛ من أجل إشراكِهم في نفقات المرافق العامَّة، التي يتمتَّعُ الجميعُ بثمراتِها، كالقضاء والشرطة، وإصلاح الطرق وإقامة الجسور، وغير ذلك. والمسلمونَ يُسْهِمونَ في ذلك بما يدفعونَه من زكاةٍ عن نقودهم

---

(١) سبقَ في (التمهيد) الإشارةُ إلى اختلاف الفقهاء: هل تُفْرَضُ (الجزية) على غير أهل الكتاب؟ وليس من مقصودِ هذا البحث مناقشةُ هذه المسألة، ولا الترجيحُ فيها؛ لأنَّها خارجةٌ عن صُلب موضوعه، وهو الحديثُ عن أهل الكتاب خصوصًا.

وتجارتِهم، وأنعامِهم وزروعِهم، فلا عجبَ أنْ يُطْلَبَ من أهل الكتاب الإسهامُ بهذا القدر الزهيد وهو (الجزية) (١).

قال (توماس آرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام): "ولم يكُن الغَرَضُ من فرض هذه الضريبة على المسيحيِّينَ، كما يريدُنا بعضُ الباحثينَ على الظنِّ، لونًا من ألوانِ العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يُؤَدُّونَها مع سائر أهل الذمَّة، وهم غيرُ المسلمينَ من رعايا الدولة الذينَ كانت تحولُ ديانتُهم بينَهم وبينَ الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كَفَلَتْها لهم سُيوفُ المسلمين. ولمَّا قدَّمَ أهلُ الحِيرةِ المالَ المُتَّفَقَ عليه، ذكرُوا صراحةً أنَّهم إنَّما دفعُوا الجزية على شريطة أنْ (يمنعونا وأميرَهم البغيَ من المسلمينَ وغيرهم). وكذلك حَدَثَ أنْ سَجَّلَ خالدٌ في المعاهَدة التي أبرمَها مع بعض أهالي المُدن المجاورة للحِيرة قولَه: (فإنْ مَنَعْناكُم فلَنا الجِزْيَةُ، وإلَّا فلا).

ويُمْكِنُ الحُكْمُ على مَدى اعترافِ المسلمينَ الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعَتْ في حُكْمِ الخليفة عمر؛ لمَّا حشدَ الإمبراطور هرقل جيشًا ضخْمًا لصَدِّ قوَّاتِ المسلمينَ المُحْتَلَّة، كانَ لزامًا على المسلمينَ نتيجةً لما حَدَثَ أنْ يُركِّزُوا كُلَّ نشاطِهم في المعركة التي أحْدَقتْ بهم، فلمَّا عَلِمَ بذلك أبو عبيدة قائدُ العرب، كَتَبَ إلى عُمَّالِ المُدُنِ المفتوحة في الشام يأمرهم بأن يَرُدُّوا عليهم ما جُبيَ من الجزية من هذه المدن، وكتبَ إلى الناس يقول: (إنَّما رددنا عليكم أموالكم لأنَّه بلَغَنا ما جُمِعَ لنا من الجُموع، وإنَّكم قد اشترطتُم علينا أنْ نمنعَكُم، وإنَّا لا نقدِرُ على ذلك. وقد رددْنا عليكم ما أخذْنا منكم، ونحنُ لكم على الشرط، وما كَتَبْنا بيْنَنا وبينَكُم؛ إنْ نَصرَنا اللهُ عليهم). وبذلك رُدَّتْ مبالغُ طائلة من مال الدولة، فدَعا المسيحيُّونَ بالبركةِ لرؤساءِ المسلمين، وقالوا: (رَدَّكُم اللهُ علينا، ونَصرَكُم عليهم [أي على الروم]؛ فلو كانُوا هم لم يَرُدُّوا علينا شيئًا، وأخَذُوا كُلَّ شيءٍ بَقِيَ لنا"(٢).

ثانيًا: آياتٌ يُزْعَمُ أنَّها تُنافي الموقفَ التعايشيَّ

من الناس مَنْ يستنِدُ إلى بعض الآياتِ القرآنيَّة، يفهَمُها فَهْمًا سَطْحِيًّا مُتَعَجِّلًا، مُسْتَدِلًّا بها على تعصُّبِ الإسلام ضدَّ المخالِفينَ له من اليهودِ والنَّصارى وغيرهم. ومن هذه الآيات قولُه تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (آل عمران/٢٨)، وقولُه سبحانَه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (المائدة/٥١)، وقولُه جلَّ

---

(١) ينظر: القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص٣٦ وما بعدها.

(٢) آرنولد، توماس، الدعوة إلى الإسلام (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية)، ص٧٩.

شأنه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (المجادلة/٢٢)، وقولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ (الممتحنة/١).

ردُّ هذه الشُّبهة:

والحقُّ أنَّ الذي يتأمَّلُ هذه الآيات ونظائرَها تأمُّلًا فاحصًا، ويدرُسُ تواريخَ نزولِها وأسبابَه وملابساتِه يَتبَيَّنُ له ما يأتي(١):

١- أنَّ النهيَ إنَّما هو عن اتِّخاذِ المخالِفينَ أولياءَ بوصفِهم جماعةً مُتَمَيِّزَةً بديانتِها وعقائدها، وأفكارها وشعائرها، أي بوصفهم يهودًا أو نصارى أو مجوسًا أو نحوَ ذلك، لا بوصفهم جيرانًا أو زُمَلاءَ أو مواطنين. والمفروضُ أنْ يكونَ ولاءُ المسلم للأُمَّة المسلمة وحدَها، ومن هنا جاءَ التحذيرُ في عددٍ من الآيات من اتِّخاذِهم أولياء (من دونِ المؤمنين)؛ أي إنَّه يتودَّدُ إليهم ويتقرَّبُ إليهم على حساب جماعتِه. ولا يَرْضَى نظامٌ دينيٌّ ولا وَضْعِيٌّ لأحدٍ من أتباعِه أنْ يَدَعَ جماعتَه التي ينتَسِبُ إليها ويعيشُ بها، ليجعلَ ولاءَه لجماعةٍ أخرى من دونِها، وهذا ما يُعَبَّرُ عنه بلُغَةِ الوطنيَّة بـ(الخيانة).

٢- أنَّ القرآنَ لم يترُكْ صفة (عَدُوِّي وعَدُوَّكُم) الواردةَ في أوَّل سورة الممتحنة مُبْهَمَةً، بل بيَّنَها في الآية الثانية بقولِه سبحانَه: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ (الممتحنة/٢)؛ فالأعداءُ الذينَ تحرُمُ موالاتُهم يتَّصِفونَ بواحدةٍ أو أكثرَ من هذه الصفات الثلاث، وهي أنْ يُؤْذُوا المسلمينَ عمليًّا، أو يُؤْذوهُم باللسان، أو يَوَدُّوا أنْ يكفرَ المسلمونَ مع استعدادِهم لعملِ أيِّ شيءٍ يُحَقِّقُ ذلك.

٣- أنَّ القرآنَ يُنَبِّهُ إلى أنَّ حالةَ العداوةِ حينَ تقعُ من الكفَّار تُجاهَ المسلمينَ لا تكونُ حالةً دائمة؛ فقد تتبدَّلُ إلى المودَّة، إذ يقولُ سبحانَه: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الممتحنة/٨)، ويُلْحَظُ أنَّ الآيةَ لم تُقَيِّدْ سَبَبَ المودَّةِ بالإيمان، بل جَعَلَتْهُ مُطْلَقًا؛ فقد يحدُثُ ذلكَ بانقلابِ موقفِهم من العداوة إلى الحِيادِ أو إلى النُّصرة، وإنْ لم يُسْلِمُوا.

---

(١) ينظر تفصيلُ هذه الردود عند: القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص٧٣ وما بعدها، وصيني، سعيد إسماعيل، علاقة المسلمين بغير المسلمين، ص٧ وما بعدها.

٤- أنَّ المُوادَّةَ التي نَهَتْ عنها الآياتُ ليستْ هي مُوادَّةَ أيِّ مخالِفٍ في الدين، ولو كانَ سِلْمًا للمسلمين وذِمَّةً لهم، إنَّما هي مُوادَّةُ مَنْ آذى المسلمينَ وحادَّ الله ورسولَه؛ كما صَرَّحَ بذلك قولُه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (المجادلة/٢٢)، ومُحادَّةُ الله ورسولِه ليستْ مُجَرَّدَ الكُفْر بهما، بل محاربةُ دعوتِهما، والوقوفُ في وَجْهِها، وإيذاءُ أهلِها.

٥- أنَّ الإسلامَ أباحَ للمسلم التزوُّجَ من أهل الكتاب، والحياةُ الزوجيَّةُ يجبُ أنْ تقومَ على السكون النفسيِّ والمودَّة والرحمة، كما دلَّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم/٢١) وهذا يدُلُّ على أنَّ مَوَدَّةَ المسلم لغير المسلم لا حرجَ فيها، وكيفَ لا يُوادُّ الرجلُ زوجتَه إذا كانت كتابيَّة؟ وكيفَ لا يُوادُّ الوَلَدُ جَدَّه وجدَّتَه، وخالَه وخالتَه، إذا كانتْ أمُّه ذِمِّيَّة؟

٦- أنَّ الحقيقةَ التي لا شكَّ فيها أنَّ الإسلامَ يُؤَكِّدُ إعلاءَ الرابطة الدينيَّة، على كُلِّ رابطةٍ سواها، سواءً أكانت رابطةً نَسَبِيَّةً أم إقليميَّةً أم عنصريَّة أم طبَقيَّة؛ فالمسلمُ أخو المسلم، والمؤمنونَ إخوة، والمسلمونَ أمَّةٌ واحدة، يَسْعَى بذمَّتِهم أدناهُم، وهم يَدٌ على مَنْ سِواهُم. والمُسْلِمُ أقربُ إلى المسلمِ من أيِّ كافر، ولو كانَ أباهُ أو ابنَه أو أخاه، وهذا ليس في الإسلام وحدَه، بل هي طبيعةُ كلِّ دين، وكلِّ عقيدة. ومَنْ قرأ الإنجيلَ وجدَه يُؤَكِّدُ هذا المعنى في أكثرَ من موقف.

المبحث الثالث

الموقفُ الجهاديُّ من (أهل الكتاب) وردُّ الشُّبُهاتِ حولَه

المطلب الأول

بيانُ القرآن للموقفِ الجهاديِّ من (أهل الكتاب)

غنيٌّ عن البيان أنَّ (الجِهاد) مفهومٌ أوسعُ مدلولًا من (القِتال)، وأرحَبُ ميدانًا؛ فهناكَ جِهادُ النفس، وجِهادُ الشيطان، وجِهادُ العَدُّو[1]، وهناكَ الجِهادُ بالمال، والجِهادُ بالسِّنان، والجِهادُ باللِّسان، وقد سمَّى القرآنُ الجِهادَ باللِّسان جهادًا كبيرًا، وذلك في قولِه سبحانَه: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان/٥٢)؛ فالمقصودُ الجهادُ بالقرآن(٢).

قال القاسمي: "(وجاهِدْهُم به) أي بالقرآن وما نَزَلَ إليكَ من الحق، (جِهادًا كبيرًا) أي لا يُخالِطُه فُتُور، بأنْ تُلْزِمَهُم بالحُجَج والبَيِّنات، وتدعُوَهُم إلى النظر في سائر الآيات؛ لتَتَزَلْزَلَ عقائدُهم، وتسمُجَ في أعينِهم عوائدُهم. وهذه الآيةُ من أصْرَحِ الأدلَّةِ في وجوبِ مجادَلَةِ المُبْطِلين، ودعوتِهم إلى الحقِّ بقُوَّة، والتفنُّنِ في مُحاجَّتِهم بأفانين الأدلَّة؛ فإنَّ الحقَّ يتَّضِحُ بالأدِلَّة، كما أنَّ الشُّهورَ تشتَهِرُ بالأهِلَّة"(٣).

وإذَنْ فالدعوةُ إلى الإسلام جِهاد، والحِوارُ لإثباتِ حقِّيَّةِ الإسلام جهاد، والقتالُ للدفاعِ عن الإسلام جِهاد. ومن هنا فإنَّ الموقفَ الجهاديَّ من أهل الكتاب تنتَظِمُه عدَّةُ محاور، وهي دعوتُهم إلى اتِّباع الإسلام، وحوارُهم وجدالُهم بالتي هي أحسَن، وقتالُهم إذا اعتَدَوْا على المسلمين أو صَدُّوا عن الإسلام.

وفيما يأتي تفصيلُ الكلامِ على هذه المحاور الثلاثة:

المحْوَر الأوَّل: دعوتُهم إلى اتباعِ الإسلام

لا شَكَّ أنَّ أهلَ الكتابِ من أمَّةِ الدعوة؛ فقد بُعِثَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافَّة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف/١٥٨)، فلم تكُنْ دعوتُه لأمَّةٍ دونَ أمَّة، ولا لِشعْبٍ دونَ شَعب، ولا لِبلادٍ دونَ بلاد، إنَّما بُعِثَ رحمةً مُهداةً للبشريَّةِ جمعاء. ولا نجِدُ نبيًّا أو رسولًا ادَّعى أنه مبعوثٌ للناس أجمعين، وأنَّ رسالتَه باقيةٌ خالدة، إلا سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فقد أعلَنَ من أوَّلِ أمره في مكة أنَّه رسولُ الله إلى الناس أجمعين، وأنَّه رحمةٌ للعالمين، وأنَّه خاتَمُ النبيِّين،

---

(١) ينظر: الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٠٨.

(٢) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٣، ص٥٦، والبيضاوي، أنوار التنزيل، ج٤، ص٩٧، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٤٢٩، والألوسي، روح المعاني، ج١٩، ص٤٨.

(٣) القاسمي، محاسن التأويل، ج٧، ص٤٣٢.

فلا نبيَّ بعدَه، ولا شريعة بعدَ شريعتِه، وأنَّ فلاحَ البشريَّة كلِّها مُتَوَقِّفٌ على اتباعِه، والتمسُّكِ بما جاءَ به.

وتطبيقًا لعالميَّة الدعوة الإسلاميَّة وشمولِها، وأنَّها عامَّةٌ غيرُ خاصَّة، دَعَا رسولُ اللهُ صلى الله عليه وسلم أهلَ الكتاب جميعًا، وأرسلَ رسائلَه إلى قيصر ملك الروم، وإلى المقوقس عظيم القبط في مصر، وإلى النجاشيِّ في الحبشة، وإلى بعض أمَراء الشام ممَّنْ يدينونَ بالنصرانيَّة، يدعُوهُم بدعايةِ الإسلام، ويختِمُ رسائلَه بقولِه تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران/٦٤) (١).

ومن ذلك كتابُه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسولِ الله إلى هرقل عظيمِ الروم، سلامٌ على مَن اتَّبَعَ الهُدى، أما بعد، فإنِّي أدعوكَ بدِعايةِ الإسلام، أسلِمْ تسلَمْ، وأسلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجرَكَ مَرَّتَيْن، فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عليكَ إثمَ الأريسيِّين(٢)، و{يا أهلَ الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينَكم إلا نعبدَ إلا اللهَ} إلى قولِه: {اشهَدُوا بأنَّا مُسلمون}"(٣).

وكانَتْ دعوتُه عليه الصلاة والسلام لأهلِ الكتاب _كدعوتِه لغيرهم_ بالحكمة والموعظةِ الحسنة، وبالحُجَج الساطعة، والبراهين القاطعة، مُتَمَثِّلًا قولَ ربِّه جلَّ جلالُه: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة/١٥-١٦).

المحْوَر الثاني: حوارُهم وجدالُهم بالتي هي أحسَن

الحوارُ هو المنهجُ الإسلاميُّ الثابتُ في علاقة المسلمين بمَنْ يخالِفُهم، وهو الذي يُعَبِّرُ عنه القرآنُ بعبارة (الجدال بالتي هي أحسن)، وهذا ما نقرأه بجَلاءٍ في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

---

(١) ينظر: القرضاوي، فقه الجهاد، ج٢، ص١١١٠.

(٢) (إثمَ الأريسيِّين): أي إثمَ الفلاحين، والمعنى: فإنْ لم تدخُلْ في الإسلام فإنَّ عليكَ إثمَكَ وإثمَهُم إذا لم يُسْلِمُوا تقليدًا لك. ينظر ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج١، ص٥٤.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب {قل يا أهلَ الكتاب تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألَّا نعبدَ إلا الله}، حديث رقم(٤٥٥٣) ص٧٧٤.

(النحل/١٢٥)، والحكمةُ هي التي تُخاطِبُ العقولَ لتفْهَم، والموعظةُ هي التي تُخاطِبُ القلوبَ لتتأثَّر. وكلُّ إنسانٍ له عقلُه الذي يحتاجُ إلى الحكمة حتى يقتنِع، وله قلبُه الذي يحتاجُ إلى الموعظة حتى يتأثَّر.

وإذا كانت الموعظةُ مع الموافقين، فإنَّ (الجدالَ بالتي هي أحسن) مع المُخالِفين، وقد اكتَفَى القرآنُ في الموعظة بأنْ تكونَ حَسَنَة، ولم يَكْتَفِ في الجدال إلا أنْ يكونَ بالتي هي أحسن؛ على معنى أنَّه إذا كانت هناكَ طريقتانِ للجِدال أو الحوار، إحداهما حَسَنَةٌ جيِّدة، والأُخرى أحسنُ منها وأجودُ، فالمطلوبُ أنْ تستخدِمَ الطريقة هي أحسَنُ وأمثَل. والجدالُ أو الحوارُ مطلوبٌ مع كُلِّ الناس، حتى المُشْركين الوَثَنِيِّين، الذينَ جادَلَهُم القرآنُ في سُوَرٍ وآياتٍ كثيرة، مُستَعْمِلًا أرقَّ الأساليب، وألْيَنَ العبارات.

ولكنَّ القرآنَ نَصَّ على حُسْنِ الجِدال مع أهلِ الكتاب خاصَّة، كما قال اللهُ سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (العنكبوت/٤٦). فإذا كانت آيةُ سورة النحل تأمُرُ بجِدال المُخالفين عامَّةً بالتي هي أحسن، فهذه الآيةُ في سورة العنكبوت تنهَى عن الجِدال مع أهلِ الكتاب إلا بالتي هي أحسن، وتستثني من ذلك الذينَ ظَلَمُوا منهم، ولذلك لا حَوارَ بيننا وبينَ اليهودِ في هذه الآونَة؛ لأنَّهم ظَلَمونا أبلَغَ الظُّلْم، وشَرَّدُوا أهلَنا، وغَصَبُوا أرضَنا، وانتَهَكُوا حُرُماتِنا، وأيُّ ظُلْمٍ أكبَرُ من هذا الظلم وأقسَى؟(١)

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ (العنكبوت/٤٦): "(بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ) بالخصلة التي هي أحسن: وهي مقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكَظْم، والسَّوْرَة بالأناة، كما قال: {ادْفَعْ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ} (فصلت/٣٤)، إلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا فأفرطوا في الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق، فاستعملوا معهم الغلظة"(٢).

المِحْوَر الثالث: قتالُهم إذا اعتَدَوْا على المُسْلِمين أو صَدُّوا عن الإسلام

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ (التوبة/٢٩).

قال صاحبُ (المنار) عند تفسير هذه الآية: "كَانَ كُلُّ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ فِي أَحْكَامِ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِمْ، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي حُكْمِ قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْغَايَةِ

---

(١) ينظر: القرضاوي، فقه الجهاد، ج٢، ص١١٠٧.
(٢) الزمخشري، الكشاف، ج٣، ص٤٤٢.

الَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا، وَهِيَ تَمْهِيدٌ لِلْكَلَامِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مَعَ الرُّومِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالشَّامِ، وَالْخُرُوج إِلَيْهَا فِي زَمَنِ الْعُسْرَةِ وَالْقَيْظِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ فَضِيحَةِ الْمُنَافِقِينَ، وَهَتْكِ الْأَسْتَارِ عَنْ إِسْرَارِهِمْ لِلْكُفْرِ، وَمِنْ تَمْحِيصِ الْمُؤْمِنِينَ"(١).

وقال ابن عاشور: "الظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ استئنافٌ ابْتِدَائِيٌّ لَا تَتَفَرَّعُ عَلَى الَّتِي قَبْلَهَا، فَالْكَلَامُ انْتِقَالٌ مِنْ غَرَضِ نَبْذِ الْعَهْدِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ وَأَحْوَالِ الْمُعَامَلَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى غَرَضِ الْمُعَامَلَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، إِذْ كَانَ الْفَرِيقَانِ مُسَالِمَيْنِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَوَّلِ بَدْءِ الْإِسْلَامِ، وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ فِي مُدَافَعَةِ الْمُشْرِكِينَ لِلْمُسْلِمِينَ مَا يَكْفِيهِمْ أَمْرَ التَّصَدِّي لِلطَّعْنِ فِي الْإِسْلَامِ وَتَلَاشِي أَمْرِهِ. فَلَمَّا أَخَذَ الْإِسْلَامُ يَنْتَشِرُ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ يَوْمًا فَيَوْمًا، وَاسْتَقَلَّ أَمْرُهُ بِالْمَدِينَةِ، ابْتَدَأَ بَعْضُ الْيَهُودِ يُظْهِرُ إِحَنَهُ نَحْوَ الْمُسْلِمِينَ، فَنَشَأَ النِّفَاقُ بِالْمَدِينَةِ، وَظَاهَرَتْ قُرَيْظَةُ وَالنَّضِيرُ أَهْلَ الْأَحْزَابِ لَمَّا غَزَوا الْمَدِينَةَ فَأَدْهَبَهُمُ اللَّهُ عَنْهَا. ثُمَّ لَمَّا اكْتَمَلَ نَصْرُ الْإِسْلَامِ بِفَتْحِ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ وَعُمُومِهِ بِلَادَ الْعَرَبِ بِمَجِيءِ وُفُودِهِمْ مُسْلِمِينَ، وَامْتَدَّ إِلَى تُخُومِ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ، أَوْجَسَتْ نَصَارَى الْعَرَبِ خِيفَةً مِنْ تَطَرُّقِهِ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ تَغْمُضْ عَيْنُ دَوْلَةِ الرُّومِ حَامِيَةِ نَصَارَى الْعَرَبِ عَنْ تَدَانِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ مِنْ بِلَادِهِمْ، فَأَخَذُوا يَسْتَعِدُّونَ لِحَرْبِ الْمُسْلِمِينَ بِوَاسِطَةِ مُلُوكِ غَسَّانَ سَادَةِ بِلَادِ الشَّامِ فِي مُلْكِ الرُّومِ ... فَلَا جَرَمَ لَمَّا أَمِنَ الْمُسْلِمُونَ بَأْسَ الْمُشْرِكِينَ وَأَصْبَحُوا فِي مَأْمَنٍ مِنْهُمْ، أَنْ يَأْخُذُوا الْأُهْبَةَ لِيَأْمَنُوا بَأْسَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَابْتَدَأَ ذَلِكَ بِغَزْوِ خَيْبَرَ وَقُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ، وَقَدْ هُزِمُوا وَكَفَى اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بَأْسَهُمْ وَأَوْرَثَهُمْ أَرْضَهُمْ فَلَمْ يَقَعْ قِتَالٌ مَعَهُمْ بَعْدُ، ثُمَّ ثَنَّى بِغَزْوَةِ تَبُوكَ الَّتِي هِيَ مِنْ مَشَارِفِ الشَّامِ"(٢).

وكلامُ ابنِ عاشور يُبَيِّنُ بوضوحٍ أنَّ أهلَ الكتابِ يُقاتَلُونَ إذا اعتَدَوْا على المسلمين، أو صَدُّوا عن الإسلام، أو أضْمَرُوا شرًّا لدولةِ الإسلام، وذلك كصنيعِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حينَ تَجَهَّزَ وخَرَجَ لقتالِ الروم لمَّا عَلِمَ بعزمِهم غَزْوَ ديارِ الإسلام. ولذلك جاءَ في هذه الآيةِ الأمرُ بقتالِ أهلِ الكتاب، بعدَ أن انكَشَفَ للمسلمينَ موقفُهم من أعدائهم الذينَ يتربَّصُونَ بهم الدوائر، وذلك بعدَ الإعذارِ إليهم، ودعوتِهم إلى الإسلام، دعوةً قائمةً إلى العدل والإحسان(٣).

المطلب الثاني

شُبُهاتٌ حولَ الموقفِ الجهاديِّ من (أهلِ الكتاب)

لم يسلَمِ هذا الموقفُ الثالثُ من أهل الكتاب – وهو الموقفُ الجهاديُّ- كالموقِفَيْنِ السابقَيْنِ من شُبُهاتٍ يُثيرُها أعداءُ الإسلام والجاهلونَ به، تضليلًا وتشغيبًا وتلبيسًا، وتشويهًا لصورةِ الإسلام الناصعة، القائمةِ على الحق والعدل، والرحمة والرأفة. ومن هذه الشُّبهات ما يأتي:

---

(١) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ج١٠، ص٢٤٧.
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٠، ص١٦٢.
(٣) ينظر الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، ج٥، ص٧٣٤.

أولًا: زَعْمُ التناقض بينَ نفيِ الإكراه على الإسلام والأمر بقتال أهل الكتاب.

يزعُمُ بعضُ المُشَكِّكينَ في القرآن الكريم وأحكامِه أنَّ القرآنَ قد تناقضَ حينَ نفى الإكراهَ في الدين، ثم أمَرَ بقتال أهلِ الكتاب؛ أفلا يُعَدُّ الأمرُ بقتالِهم إكراهًا لَهُم على الإسلام؟! فهُم سيُضطرُّونَ للدخول في الإسلام، حتى يأمَنُوا على أنفُسِهم من القتل.

ردُّ هذه الشُّبهة:

إنَّ القرآنَ الكريم مَنَزَّهٌ عن كُلِّ تناقُضٍ وتعارُض؛ لأنَّ التناقضَ والتعارُضَ اختلافٌ، وهو مَنْفِيٌّ عن القرآن بنَصِّ قولِه تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء/٨٢)، بل إنَّ التعارضَ والتناقُضَ لونٌ من ألوان الباطل، وكتابُ الله تعالى كتابٌ عزيز: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت/٤٢).

وليسَ هناكَ أيُّ تناقُضٍ بينَ نَفْيِ الإكراه في الدين في قولِه سبحانَه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (البقرة/٢٥٦)، وبينَ الأمر بقتال أهلِ الكتاب في قولِه تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ (التوبة/٢٩)؛ لأنَّ هذا الأمرَ بقتالِهم ليسَ من إجلِ إكراهِهم على الدخول في الدين، وإلا لكانَ أكْرَهَ اليهودُ والنصارى وغيرُهم على الدخول في دين الإسلام، حينما تغلَّبَ عليهم، وخَضَعُوا لسلطانه، ومن المعلوم لكلِّ من عَرَفَ شيئًا من تاريخ الإسلام أنَّ هذا لم يحدُثْ؛ فقد ظلَّ اليهودُ والنصارى يعيشون تحت سلطان الدولة الإسلامية، ويتمتَّعُون بحريتهم الدينية فيها.

وإنَّما علَّةُ قِتالِ أهلِ الكتاب أحدُ أَمْرَيْنِ اثنَيْن:

<u>الأوَّل:</u> اعتداءُ أهلِ الكتابِ على المسلمين، والسَّعْيُ لِبَسْطِ نُفوذِ الكُفْرِ وأهلِه على بلاد المسلمين، وهذا جِهادُ الدفعِ عن ديار الإسلام، وهو موجودٌ في كُلِّ دولةٍ عَرَفَها التاريخ، أيًّا كانَتْ مِلَّتُها، وإلَّا لما كانَتْ دولةً أصلًا، ولا كانَ لها سُلطان.

<u>الثاني:</u> صَدُّ أهلِ الكتاب الناسَ عن دين الله، ومَنْعُهُم المسلمينَ من الدعوةِ إلى الإسلام، ونَشْرِ نوره ليَراهُ مَنْ طلَبَ الهدايةَ من البشر، أو مَنْعُ غير المسلمينَ من التعرُّفِ على هذا الدين، أو الدخول فيه إذا رَغِبُوه. وهذا جِهادُ الطلَب(١).

---

(١) ينظر ابن تيمية، <u>السياسة الشرعية</u>، ص١٠٠.

وبهذا يَتَبَيَّنُ أنَّه ليستْ عِلَّةُ قتالِ أهلِ الكتاب هي إكراهَهُم على الدخول في الإسلام، وإنما هي صَدُّ عُدوانِهم، أو وَقفُ طُغيانِهم على التفصيلِ السابق.

ثانيًا: شُبْهةٌ حولَ وصفِ القرآن أهلَ الكتاب بـــ(الصَّغار) في آيةِ التوبة

وشُبْهَةٌ أُخرى يوردُها المُشَكِّكُونَ والجاهلون، مُفادُها: كيفَ يصفُ الإسلامُ -وهو دينُ الرحمة والتسامُح- أهلَ الكتابِ بوصفِ (الصَّغار) الذي معناهُ الهَوانُ والذلَّة، وذلكَ في آية التوبة نفسِها، وهي قولُه تعالى: ﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ (التوبة/٢٩).

ردُّ هذه الشُّبهة:

إنَّ أصحابَ هذه الشُّبْهَةِ قد فسَّروا (الصَّغار) الواردَ في الآيةِ الكريمة على غيرِ وَجْهِه، وإنَّما المرادُ به في هذه الآيةِ -كما نَصَّ العلماء- هو التزامُ أهلِ الكتاب بجَرَيانِ أحكامِ الله تعالى عليهم، وإعطاءِ الجِزْيَة(١).

قال صاحب المنار: "وَالصَّغَارُ (بِالْفَتْحِ) وَالصِّغَرُ (كَعِنَبٍ) وَهُوَ ضِدُّ الْكِبَرِ، وَيَكُونُ فِي الْأُمُورِ الْحِسِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْخُضُوعُ لِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَسِيَادَتِهِ، الَّذِي تَصْغُرُ بِهِ أَنْفُسُهُمْ لَدَيْهِمْ بِفَقْدِهِمُ الْمُلْكَ، وَعَجْزِهِمْ عَنْ مُقَاوَمَةِ الْحُكْمِ. قَالَ الرَّاغِبُ: الصَّاغِرُ الرَّاضِي بِالْمَنْزِلَةِ الدَّنِيَّةِ، وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي (الْأُمِّ): وَسَمِعْتُ عَدَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُونَ: الصَّغَارُ أَنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِمْ حُكْمُ الْإِسْلَامِ"(٢).

وقيل: "معنى (الصَّغار) التسليمُ وإلقاءُ السلاح، والخُضوعُ لحُكْمِ الدولة الإسلامية"(٣).

ولا شكَّ أنَّ السياقَ سياقُ مقاتَلَةٍ، ومحاربةٍ، ومصارعةٍ؛ بدليل صيغةِ المفاعلة في هذه الآية: (قاتِلُوا)، وهي تدلُّ على المشاركة من الطرفَيْن، والمصارعة من الفريقين، وفي كُلِّ حَرْبٍ يستسلِمُ أحدُ الطرفينِ للآخرِ وهو في حالةِ خضوع وذِلَّةٍ وصَغار، وإلَّا لما استسلَم، ولَبَقِيَ يُقاتِلُ حتى تكونَ له الغَلَبَة، وإذَنْ فلا بُدَّ عند انتهاءِ القتال من خضوع الطرف المغلوب للطرف الغالب، وهذا هو المقصودُ بـ(الصَّغار) في الآية.

وبانتهاءِ هذا المبحث ينتهي المقصودُ من هذا البحث، واللهُ وليُّ التوفيق.

---

(١) ينظر ابن القيم، أحكام أهل الذمة، ج١، ص١٢١، والقاسمي، محاسن التأويل، ج٥، ص٤٣٢.
(٢) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ج١٠، ص٢٥٦.
(٣) القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص٣٥.

الخاتمة

في ختامِ هذا البحث، أسَجِّلُ أهمَّ النتائج التي توصَّلْتُ إليها، وهي على النحو الآتي:

أولًا: أنَّ موقفَ المسلم من أهل الكتاب في ميزان القرآن ليس موقفًا واحدًا، وإنما هو موقفٌ ذو ثلاثِ شُعَب؛ فهناكَ (الموقفُ العقديُّ)، وهناكَ (الموقفُ التعايُشِيُّ)، وهناكَ (الموقفُ الجِهاديُّ)، وهذه المواقفُ الثلاثةُ لا تعارُضَ بينَها ولا تناقُض، بل كُلُّ واحدٍ له مجالُه الذي لا يتداخَلُ مع غيره.

ثانيًا: أنَّ موقفَ المسلم العَقَديَّ من أهل الكتاب قد جَلَّاه القرآن الكريم دونما لَبْسٍ أو غموض؛ فقد نَصَّ في آياتِه على كُفْر اليهود والنصارى، وأنَّهم إنْ لم يُؤمِنُوا بالنبيِّ الخاتَم (محمد صلى الله عليه وسلم)، وبالكتاب الخاتَم (القرآن الكريم)، فلَنْ يُقْبَلَ منهم، وهم في الآخرة من الخاسرين.

ثالثًا: أنَّ الشُّبُهاتِ التي أثيرَتْ حولَ هذا (الموقف العَقَديِّ) من أهل الكتاب لا يصْعُبُ ردُّها، بل يسهُلُ نَقْضُها، من خلال الآياتِ الصريحةِ قطعيَّةِ الدلالة، التي تنصُّ على أنَّ كُلَّ من أدركَ النبيَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب ثم لم يؤْمِنْ به وبالقرآنِ الذي نَزَلَ عليه، فهو كافرٌ لا يقْبَلُ الله منه صَرْفًا ولا عَدْلًا. وما سِوى ذلك من الآيات فهي مَدْحٌ للمؤمنين من أهلِ الكتاب قبلَ بعثتِه صلى الله عليه وسلم، أو لِمَنْ أدْرَكَهُ وآمَنَ به عليه الصلاةُ والسلام.

رابعًا: أنَّ (الموقِفَ التعايُشِيَّ) من أهل الكتاب يُؤَكِّدُ أنَّ أصلَ العلاقةِ بينَ المسلمينَ وغيرهم السِّلْمُ لا الحربُ؛ لأنَّ أصلَ العلاقةِ بينَ بني الإنسان هو التعارُفُ والتعاون، والإسلامُ يهدِفُ إلى تحقيق السلام للمخلوقات المُكَلَّفَة في الدارَيْن: الدنيا والآخرة مَعًا، وإذا رفضَ بعضُ المخلوقات المُكَلَّفة التعاوُنَ لتحقيق هذا السلام الشامل، فإنَّ الإسلامَ جاهزٌ أيضًا للتعاوُن على تحقيق السلام في مستوى الحياة الدنيا فقط مع هذه الفئة.

خامسًا: أنَّ الشُّبُهاتِ التي أثيرَتْ حولَ هذا (الموقف التعايُشيِّ) مع أهل الكتاب لا تعدُو أنْ تكونَ فَهْمًا خاطئًا لبعض الآيات القرآنيَّة، أو توظيفًا لها في غير مقصودِها وسياقِها.

سادسًا: أنَّ الموقفَ الجِهاديَّ من أهل الكتاب تنتَظِمُه محاورُ ثلاثة، وهي دعوتُهم إلى اتِّباع الإسلام، وحوارُهم وجدالُهم بالتي هي أحسَن، وقتالُهم إذا اعتَدَوْا على المسلمين أو صَدُّوا عن الإسلام.

سابعًا: أنَّ وصفَ (الصَّغار) الواردَ في (آيةِ الجزية) في سورة التوبة ليس معناهُ وَصْمَ أهلِ الكتابِ بالذلَّةِ والمَهانة، وإنَّما المرادُ به التسليمُ وإلقاءُ السلاح والخُضوعُ لأحكامِ الدولة الإسلاميَّة.

والحمدُ لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

قائمة المصادر والمراجع

١- آرنولد، توماس ت(١٩٣٠م)، الدعوة إلى الإسلام (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية)، ترجمة د. حسن إبراهيم ود. عبد المجيد عابدين ود. إسماعيل النحراوي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط١، ١٣٩٠هـ-١٩٧١م

٢- الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله ت(١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م

٣- الإمام أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل ت(٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م

٤- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ت(٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح المُسْنَد من حديثِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وسُنَنِه وأيَّامِه (صحيح البخاري)، الرياض، مكتبة دار السلام، ط٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

٥- البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر ت(٦٨٥هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت، دار الفكر، بدون طبعة ولا تاريخ.

٦- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم ت(٧٢٨هـ)، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعيَّة، الرياض، وزارة الأوقاف السعودية، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م

٧- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم ت(٧٢٨هـ)، مجموع الفتاوى، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م

٨- جماعة من العلماء، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الكويت)، الموسوعة الفقهية الكويتية، الكويت، دار السلاسل، ط٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

٩- ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي ت(٥٩٧هـ)، صفة الصفوة، القاهرة، دار الحديث، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م

١٠-ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي ت(٨٥٢هـ)، فتح الباري، دمشق، دار الفيحاء، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م

١١-ابن حزم، علي بن أحمد ت(٤٥٦هـ)، المحلى بالآثار، بيروت، دار الفكر، بدون طبعة ولا تاريخ.

١٢-الخطيب، عبد الكريم يونس ت (بعد١٣٩٠هـ)، التفسير القرآني للقرآن، القاهرة، دار الفكر العربي، ط١، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م

١٣-أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني ت(٢٧٥ه)، سنن أبي داود، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، الرياض، مكتبة المعارف، ط١، ١٤١٧ه -١٩٩٧م
١٤-الدهلوي، ولي الله أحمد بن عبد الرحيم ت(١١٧٦ه)، الفوز الكبير في أصول التفسير، تعريب سلمان الحسيني الندوي، القاهرة، دار الصحوة، ط٢، ١٤٠٧ه -١٩٨٦م
١٥-الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد ت(٤٢٥ه)، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داوودي، دمشق، دار القلم، ط٢، ١٤١٨ه - ١٩٩٧م
١٦-رضا، محمد رشيد ت(١٣٥٤ه)، تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدون طبعة، ١٤١٠ه - ١٩٩٠م
١٧-أبو ريَّة، محمود ت(١٣٧٠ه)، دين الله واحد على ألسنة جميع الرسل – محمد والمسيح أخَوان، القاهرة، دار الكرنك، بدون طبعة ولا تاريخ.
١٨-الزحيلي، وهبة مصطفى ت(١٤٣٦ه)، الفقه الإسلامي وأدلَّتُه، دمشق، دار الفكر، ط٦، ١٤٢٩ه -٢٠٠٨م
١٩-الزمخشري، جار الله محمود بن عمر ت(٥٣٨ه)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥ه -١٩٩٥م
٢٠-الشوحة، خالد نواف، ٢٠٠٧م، الحوار مع الآخر في القرآن الكريم عند المفسرين والمفكرين المعاصرين – دراسة تحليليَّة نقدية، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.
٢١-الشوكاني، محمد بن علي بن محمد ت(١٢٥٠ه)، فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥ه – ١٩٩٤م
٢٢-صيني، سعيد إسماعيل، علاقة المسلمين بغير المسلمين، المدينة المنورة، مكتبة دار الفجر الإسلامية، ط٣، ١٤٣٢ه-٢٠١١م
٢٣-الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر ت(٦٠٦ه)، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٤، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م
٢٤-الطبري، محمد بن جرير ت(٣١١ه)، جامع البيان في تأويل آي القرآن، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤٢١ه-٢٠٠٢م
٢٥-ابن فارس، أحمد بن فارس ت(٣٩٥ه)، المقاييس في اللغة، بيروت، دار الفكر، ط٢، ١٤١٨ه-١٩٩٨م

٢٦-الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر ت(٦٠٦ه)، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٤، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م
٢٧-القاسمي، محمد جمال الدين ت(١٣٣٢ه)، محاسن التأويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ -١٩٩٧م
٢٨-ابن قدامة، عبد الله بن أحمد ت(٦٢٠ه)، المغني، القاهرة، مكتبة القاهرة، بدون طبعة، ١٣٨٨ه -١٩٦٨م
٢٩-القرافي، أحمد بن إدريس ت(٦٨٤ه)، الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨ه -١٩٩٨م
٣٠-القرضاوي، يوسف عبد الله، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٣، ١٤١٣ه-١٩٩٢م
٣١-القرضاوي، يوسف عبد الله، فقه الجهاد، القاهرة، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٣٠ه-٢٠٠٩م
٣٢-القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد ت(٦٧١ه)، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٤ه -١٩٩٣م
٣٣-قطب، سيد إبراهيم ت(١٣٨٦ه)، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط٣٤، ١٤٢٥ه-٢٠٠٤م
٣٤-ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب ت(٧٥١ه)، أحكام أهل الذمة، تحقيق يوسف البكري وشاكر العاروري، الدمام، رمادي للنشر، ط١، ١٤١٨ه -١٩٩٧م
٣٥-ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد ت(١٣٩٣ه)، التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية، ١٤٠٤ه-١٩٨٤م
٣٦-ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير ت(٧٧٤ه)، تفسير القرآن العظيم، دمشق، دار الفيحاء، ط١، ١٤١٤ه -١٩٩٤م
٣٧-لوبون، غوستاف ت(١٩٣١م)، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط١، ١٤٣٤ه-٢٠١٣م
٣٨-المجالي، محمد خازر، ٢٠٠٤م، الآيات المادحة لأهل الكتاب – عرض وبيان، مجلة (دراسات)، الجامعة الأردنية، المجلد(٣١)، العدد(١)، ص(١٩٤-٢١٥).
٣٩-مجموعة من المؤلفين، معاملة غير المسلمين في الإسلام، عمان، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ط١، ١٤٠٩ه-١٩٨٩م
٤٠-مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج ت(٢٦١ه)، صحيح مسلم، الرياض، مكتبة دار السلام، ط١، ١٤١٩ه -١٩٩٨م
٤١-ابن منظور، محمد بن مكرم ت(٧١١ه)، لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٦ه-١٩٩٥م

٤٢-الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد ت(٥٤٦٨)، أسباب النزول، تحقيق كمال بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية ، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م
٤٣-الوادعي، مقبل بن هادي ت(١٤٢١ه)، الصحيح المسند من أسباب النزول، بيروت، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٣هـ -١٩٩٣م